THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY

أنور زقلمة
المحامي

ثورة علي بك الكبير

١٧٦٨م

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)
(صبحي وشركاه)

أنور زقلمة
المحامي

ثورة علي بك الكبير

١٧٦٨ م

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)
(صبحي وشركاه)

962
Y183

الإهداء

أهديت كتابى الأول إلى مصر أمنا الكبرى .

الوطن العزيز الغالى الذى آمنت بمجده الأزلى .

وأهديت كتابى الثانى إلى الجامعة المصرية أمنا الصغرى .

عماد مصر الحديثة ومناط أملها فى السير بها نحو الكمال القومى .

وأهدى كتابى الثالث إلى ذكرى أمى .

أنور زقلمة المحامى

مايو ١٩٥٢

Aug 24, 1957 SB 2657 11-9-64 MB

تصدير

فى سنة ١٥١٧م دخلت مصر فى حوزة الحكم التركى باستيلاء السلطان سليم على البلاد وزوال ما كان لها من استقلال فى عهد السلاطين البرجية . واستتبع الفتح العثمانى وضع نظام للحكم رزحت تحته البلاد نحو ثلاثة قرون متعاقبة من سنة ١٥١٧م إلى سنة ١٧٩٨م . وقوام هذا النظام إيجاد ثلاث سلطات تتنازع الحكم وتتقاسمه وهى سلطة الوالى التركى وسلطة رؤساء الجند وسلطة الأمراء المماليك الذين قدموا طاعتهم للسلطان العثمانى . وقد تطور هذا النظام إلى انفراد المماليك بالحكم فتلاشت سلطة الوالى وصارت قوات الجند تحت إمرتهم . واستأثروا بالحكم من أواخر القرن السابع عشر . وساعدهم على تحقيق هذا الهدف تقهقر السلطة العثمانية وانصرافها إلى محاربة النمسا والروسيا خلال القرن الثامن عشر . ومعاونة الشعب المصرى لهم فى الاستقلال بمصر والتخلص من السيادة التركية . وقد ظهرت هذه السيادة جهرة فى عهد على بك الملقب بالكبير الذى أرّخه الأستاذ أنور زقلمه فى هذا الكتاب القيّم .

وعلى بك الكبير هو من الأمراء المماليك وصل بقوة أشياعه إلى رآسة الحكومة وكانت تسمى « مشيخة البلد » سنة ١٧٦٣ . وطمحت نفسه إلى الاستقلال بمصر . فلما نشبت الحرب بين تركيا والروسيا سنة ١٧٦٨ جاهر بخلع يده من طاعة تركيا وأعلن استقلال مصر وامتنع عن دفع الخراج سنة ١٧٦٩ وعزل الوالى التركى ومنع ورود الولاة العثمانيين . وضرب النقود باسمه . ودانت له مصر بحريها وقبليها . وكان من مماليكه وأتباعه أحمد (باشا) الجزار ومحمد بك أبو الذهب وإسماعيل بك وحسن بك الجداوى وإبراهيم بك ومراد بك وغيرهم

ممن كانت لهم الأدوار الكبيرة على مسرح الحوادث فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر .

وكان على بك طموح النفس واسع المطامع . فجرد الجيوش المصرية وفتح معظم جزيرة العرب . ونادى به شريف مكة (سلطان مصر وخاقان البحرين) وأوفد محمد بك أبا الذهب ليفتح باسمه سوريا ففتح معظمها . ولكن لم يكد يتم له فتح دمشق حتى انقلب على سيده واتفق مع تركيا على خيانته . وعاد إلى مصر ليستأثر بالحكم فيها . وقامت الحرب بينه وبين سيده وانتهت بمقتل على بك الكبير سنة ١٧٧٣ . وعادت مصر ولاية عثمانية وخلصت إمارتها لمحمد بك أبى الذهب . وكافأته تركيا بفرمان تثبيته فى مشيخة البلد وتوليته حكم مصر .

فتاريخ على بك الكبير هو محاولة لاستقلال مصر وتخليصها من التبعية لتركيا . ولئن انتهت هذه المحاولة بالفشل والإخفاق فإن هذا لا يغض من مكانته فى تاريخ مصر . ولقد خصص الأستاذ الأديب أنور زقلمه المحامى النابه هذا الكتاب القيم لإبراز هذه المكانة على ضوء الحقائق التاريخية . وفى الحق أنه أوفى الموضوع حقه من ناحية البحث العلمى والاستقصاء فى لغة سهلة مشوقة .

وللأستاذ أنور زقلمه كتب قيمة فى التاريخ المصرى تدل على أنه من المؤلفين النابهين الذين يعنون بالبحث والتحقيق . واستخلاص المعانى القومية من ثنايا الحوادث التاريخية . فله من هذه الناحية فضل عميم . وهو جدير بالشكر على ما يبذله من جهود موفقة فى ميادين البحث العلمى والتاريخى .

مايو ١٩٥٢

عبد الرحمن الرافعى
المحامى

مقدمـــــة المؤلف

عند الإنجليز كلمة مشهورة عن شكسبير قالها فيه كارليل وهى أن شكسبير خير لنا من الهند ، وهذا أكبر مدح يقوله انجليزى عن آخر .

ولست تجد شاباً من أى جنسية أخرى لا يستطيع أن يحدثك ويفاخرك بعظماء وطنه — وأمجادهم عدانا فنحن لا نستطيع أن نعد لأنفسنا عظماء — بل لأننا لم ندرس عظماءنا ولم نخصص لهم الدراسات ... فلم نستطع أن نفهمهم ونقدسهم .

والسبب فى ذلك يرجع إلى الفكرة الدنلوبية ، التى حولت مناهج التعليم إلى مجرد نهج لإعداد موظفين حكوميين للأعمال الحكومية دون تزويدهم بأى ثقافة قومية — أو بفكرة عن أمجاد بلادهم وتاريخها الملىء بالعظمة والفخار .

فالأبطال المجهولون فى تاريخنا ... بل فى تاريخنا الحديث ... كثيرون ويجب علينا نحن كتاب الجيل الجديد أن نعمل على إنصافهم وإظهار أمجادهم ونضعها موضع الدرس والتحليل حتى يلتهم الشباب المصرى بعض تلك العظمة التى توحى بالعمل لمصر وخدمتها كما خدمها أولئك الأبطال ... نحن أمة مجيدة ... قد غمطها التاريخ حقها — نريد أن نظهر عظمة بلادنا واضحة مجلوة من تلك الأتربة التى تراكمت على تاريخنا وسيرتنا — فواجبنا أن نظهر تلك العظمة المستترة وأن نعرف القراء بأبطال تاريخهم ونحدثهم عن عظمائهم ونطلب منهم أن يحذوا حذوهم وأن يكونوا عظماء مثلهم ... إذ كيف يستطيع إنسان أن يشعر بعظمة وطنه ويرى من واجبه الأول أن يزيده عظمة وهو لا يعرف عن مجده شيئاً ... بل ولا يعرف سيرة عظمائه وتاريخهم والمثل العليا التى سموا لها .

فقد ابتلينا دون شعوب العالم بنزعة عجيبة ، هى تضخيم عيوبنا وتجسيم رذائلنا وتهوين شأننا ، أما فضائلنا فلا يذكرها أحياناً إلا الأجانب الذين يعرفون أننا أصل حضارة العالم ... فواجبنا أن نذكر الناس أن إنجلترا التى يقال أنها سيدة العالم قد ملكها أهل اسكندناوه ، واجتاحها الفرنسيون ، واستعبدها الرومان .

وأن نذكر المصريين أن بلادهم كانت دائماً أمبراطورية فى تاريخها القديم ، وفى تاريخها الحديث ، لا بل الأحدث[1] وأنها كانت سيدة العالم يوم هزم ملوكها جيوش الشرق والغرب واحتلت جحافلها كل العالم المتمدين فى ذلك الحين ، لا بل أكثر من ذلك فبعض المصريولجيين يقول أن آثار الفراعنة موجودة فى أمريكا قبل أن يكتشفها « خرستوفو كلمبوس » .

وأن جيوش صلاح الدين سلطان مصر قد قهرت جيوش إنجلترا وفرنسا وألمانيا مجتمعين ، وأن فى عهد على بك الكبير هزمت دولة الخلافة وأن محمد على هزم إنجلترا فى واقعة أبو حماد ... وبقيادة ابراهيم باشا اجتاحت جيوشها الأمم والشعوب ... وزلزلت سلطان تركيا ... لولا تألب دول أوروبا عليها ووقوفها سداً أمام مصر المنتصرة ... وأن جنودنا ساعدوا فرنسا فى المكسيك فى عهد نابليون الثالث ... وعلينا واجباً نحو مصر بلادنا أن نذكر أهلها بماضيهم وحاضرهم المجيد حتى يزول عنهم ضعف الثقة بأنفسهم وشهوة الغض من قيمتهم .

* * *

إن فترة الاحتلال لم تقتل فينا الروح ولكنها خدرتها وأنامتها .

وأن تاريخنا الذى أظهره لنا الاحتلال هزيلا — إلى جانب تاريخ الأمم الأوربية ، التى أطالوا فى وصف مفاخرها وأفاضوا وأسهبوا — كان له فعلا بعض الأثر فى إظهارنا هزيلين فى أنفسنا — وأقزاماً بالقياس إلى كل ما هو أوروبى ...

---

(١) سنصدر قريباً كتابنا « مصر الأمبراطورية كيف كانت وكيف يجب أن تعود » .

ضرب فينا شيئا من الخور والتراخى ... وتراءت لنا الأشياء فى فترة إغفائنا على غير حقيقتها ونسبتها الصحيحة ... فضعفنا الطارئ خلناه ضعف الأبد ... وتصورنا الوقتى توهمناه دائماً ثابتاً فى طبائعنا ... واستبد بنا الوهم فاعتقدنا أننا وحدنا دون شعوب الأرض المقدر لهم النوم والوهن ... وأنه ما من أمة أخرى فى أوروبا المملاقة قد مرت بهذه الفترة وقد ترتب على هذا الاعتقاد ذلك الشعور بالقصور الدائم عن ملاحقة الأمم التى بهرنا تاريخها المجيد ... وكلما حاول بعضنا النهوض كذبنا أعيننا وكذبناه ... وأصبح النص من قيمة أعمالنا شهوة من شهوات النفس ... إنها شهوة العبيد ... كل ذلك عرفناه ومررنا به ... ولكن من حسن الحظ ... ما حدث ذلك قط فى الحقيقة .. ولكن فى الحلم والوهم ... فى فترة الإغفاءة التى لازمت الاحتلال ... وما كدنا نفيق حتى أبصرنا الأشياء على أوضاعها ونسبها ... وعرفنا أنفسنا ... وأدركنا أن فى مقدورنا أن ننهض على أقدامنا وأن نسير وأن نلحق بركب الحضارة .

ومن يدري غداً ؟ ...

فسنكون فى المقدمة كما كنا دواماً .

* * *

ناديت فى « مقدمتى كتابى السابقين[1] » الأدباء والكتاب أن يهتموا بتاريخ مصر الحديثة وسير أبطالها المغموطى الحقوق ، ولا أزال أنادى فى هذا الكتاب إلى مضاعفة الجهد في الاهتمام بهذا الموضوع .

وذلك بأن ندعوا إلى تنفيذ الاقتراحات الآتية :

* * *

---

(١) عصر المماليك — والثورة العرابية .

وجوب إنشاء جامعة شعبية :

لا تتقيد بالنظم الحكومية ويكون هدفها الأول قبول المثقفين لإعدادهم إعداداً قومياً وتربية جيل جديد من الشباب المصرى مملوء بفخر بلاده وحبها — — عارف بتاريخها ومفاخره ولنعطيه المثل الواجبة الاحتذاء .

كرسى دائم فى الجامعات المصرية لدراسة تاريخ الثورات المصرية :

إنشاء كرسى دائم فى الجامعات المصرية لتاريخ الثورات المصرية ، وقد أخذت كافة الدول بهذا التدبير باعتباره عملا قومياً .

فهذه تركيا ما كادت تنتصر فى ثورتها الأخيرة وتستقر لها الأمور حتى أنشأت هذا الكرسى فى جامعة استانبول للتاريخ التركى الحديث — وحتى ألمانيا وقد كانت من الدول العظمى التى لم يكن لشبابها حاجة لمثل ما نحتاج إليه ، قد عملت بعد الحرب العالمية الأولى على تدريس الثورة النازية فى المدارس باعتبارها جزءاً من التاريخ الألمانى الحديث . بل ورتبت تاريخها الماضى والحاضر على أساس تلك الثورة .. !!

فإذا كانت هذه الدول أقدمت على هذا فنحن من باب أولى أحق من كافة دول العالم بذلك إذ لا يزال جهادنا مستمراً للوصول إلى الاستقرار بعد أن حصلنا على الاستقلال ؟ !

* * *

وليس يعيبنا أن نلجأ من حين إلى حين إلى الثورة لتحقيق أمانينا ، فإن كافة الدول العظمى إنما ولدت فى عهد ثورات ولولاها لما نشأت تلك الدول ... وليس العهد ببعيد على ثورة الولايات المتحدة على إنكلترا ... ولا الثورة الفرنسية ... ولا الثورة الروسية الخ ...

فقديماً غزا الفرس والنوبيون والرومان واليونان والعرب والأتراك مصر وبقيت دولهم فيها حيناً طويلا أو قصيراً وانتهت كل تلك الحكومات الأجنبية بوثبة من الشعب المصرى الكريم تنتهى بإخراج الأجنبي الغاصب وسيادة الحكومة التى يرتضيها الشعب لنفسه وهذه الثورات الشعبية يحدثنا عنها التاريخ المصرى فى أطواره المختلفة وليست حكومات الطولونيين والأخشيديين والفاطميين والأيوبيين والمماليك المصرية المستقلة إلا أمثلة على جنوح الشعب المصرى إلى الاستقلال عن غيره من الدول حتى فى ذلك التاريخ البعيد الذى لم تك قد حددت فيه القوميات تحديداً معروفاً كاملا ... والتى كانت ترزح فيه أوربا تحت عبء ثقيل من الاضطهاد والاستعباد .

وحتى بعد أن بليت مصر بسيطرة قاسية من حكم تركى مستبد تلاه حكم المماليك القاسى ، لم تفقد مصر تلك الميزة الخاصة بها وهى أن نهضتها لا تقوم إلا على ثورة شعبية ، منها يبدأ طور جديد من أطوار تاريخها وتبدأ نهضتها وتخطو خطوة جديدة نحو المجد بثورة أخرى جامحة تفوق الأولى وتزيد عنها .

تنظيم المكتبة القومية :

وبعد أن ننشىء الكرسي الدائم فى الجامعة للثورة المصرية ، يجب أن ننظم المكتبة القومية وذلك بأن نكل إلى جماعة من المؤرخين بالتفرغ إلى دراسة النهضة المصرية الحديثة وتدوينها . وإلى ترجمة الكثير من الكتب الإفرنجية الخاصة بتاريخ مصر الحديثة وجمعها وتبويبها ونشرها .

وقد اتبع هذه الخطة المجيدة حضرة صاحب الجلالة المغفور له الملك فؤاد بأن شجع إلياس بك الأيوبى على إتمام كتابه عن عصر إسماعيل ومحمد على . كما شجع محمد بك رفعت على إنجاز كتابه فى الإمبراطورية المصرية الحديثة . كما أنه أمر

المسيو هانوتو الوزير الفرنسى والمؤرخ الشهير على وضع مؤلف عن تاريخ الأمة المصرية . وتعطف جلالته رحمه الله وتبرع للجمعية الجغرافية الملكية بعدة آلاف من الجنيهات لتنفقها فى طبع الوثائق والمستندات السياسية والتاريخية الخاصة بمصر الحديثة فالمكاتبات والمراسلات الدبلوماسية المتبادلة بين مصر والدول الأوربية والموجودة أصولها فى كافة الدول .

كما سمح جلالته وخلفه الملك فاروق الأول لكافة الراغبين فى البحث بالاطلاع فى مكتبة القصر على كافة ما بها من الكتب والمخطوطات النادرة

وفى هذا الباب يجب ألا ننسى أن نذكر بالفضل الجزيل صاحب السمو المرحوم الأمير عمر طوسون وأن ننوه بفضل كتبه ونشراته على تاريخ مصر الحديث وإمبراطوريتها المفقودة .

المكتبات الشعبية :

بعد تنظيم المكتبة القومية نغذى بكتبها مكتبات شعبية ننشرها فى كل مكان ونبعثها ولو على عربات متحركة إلى الريف ومعها الموظفون المختصون إلى كل جهة لتكون فى متناول الشعب فقيره وغنيه . جاهله ومتعلمه فيتولى الموظفون تعليم الأولين ويقوم الفريق الثانى على قراءة ما تحويه المكتبة .

النهوض بالتعليم العام :

وقبل ذلك كله يجب أن ننهض بالتعليم العام وأن نهذيه البرامج وعلى الأخص كتب القراءة التى تعطى للنشء . فنعد له كتباً جديدة من تلك التى تبعث فيه روح الجيل الجديد الروح الجديد روح القومية المصرية الفائزة التى انتصرت على كافة القوميات من فجر التاريخ إلى الآن .

ولسنا مغالين فى هذا فإن تاريخ مصر قديمها وحديثها هو تاريخ شعبها المتوثب وقوميتها الكامنة التى لا تفنى ، وقد فنت كافة الدول التى غزت مصر ولم تفن نفسية الشعب الفرعونية المتأصلة فيه .

وللشعب المصرى ، مقدرة غريبة على هضم كافة القوميات التى تمتزج به ، على أن يؤقلمها ويمصرها ، وتخرج أخيراً القومية المصرية من هذا المزيج سليمة ، لها كل ميزاتها وطابعها الخاص .

* * *

وتاريخ مصر الحديثة قام على ثورات متعددة ، بدأ بثورة على بك الكبير على تركيا — ثم بثورة الأهالى على المماليك ، وعلى الأتراك ، ثم ثورتهم على الفرنسيين ثم على الأتراك ورغبتهم فى الاستقلال بالمفاوضة مع دول العالم على أيام بعثة الجنرال يعقوب ، ثم على تأييدهم لعرش محمد على باشا — ثم ثورة محمد على باشا على النظم والأساليب الشرقية فى الحكومة — ثم ثورة الخديوى إسماعيل على العرف والتقاليد ، ثم ثورة عرابى على الرجعية ، ثم ثورة مصطفى كامل على الانجليز — ثم الثورة الكبرى المجيدة سنة ١٩١٩ على الاحتلال . . . التى لا تزال قائمة حتى الآن حتى يحين الوقت لثورة جديدة .

* * *

وهذا التاريخ هو تفصيل للثورة الحديثة الأولى — ثورة على بك الكبير — الذى حطم الأتراك وأعاد إنشاء الإمبراطورية المصرية ، وميز الجنسية المصرية عن شيوعها فى الجنسية التركية وأقام فى مصر أسس النظم الحكومية المستقرة على أساس شعبى وحاول القضاء على المماليك وإحلال جيش مصرى مكانهم .

* * *

هذه صفحات حررتها لوجه الله والوطن والتاريخ .

أرجو أن تحوز قبول المصريين ورضاهم .

وهذا حسبي وهو نعم الجزاء .

١٩٤٤/١٢/٢٥

المؤلف

أنور زقلمه

المحامى

مكتبة الكتاب – مراجع البحث

لقد سبق أن عودت قرائى فى كتبى التى سبق أن أصدرتها ، أن أقدم الكتاب بتفصيل عن مصادر البحث أسميه مكتبة الكتاب — وذلك لأهمية هذه المصادر ولكونها على الأخص جزءاً من تاريخنا القومى الذى يجب إعادة بحثه وتمحيصه على أساسها .

وإننى أحذو نفس الحذو فى كتابى هذا ...

* * *

مصادر التاريخ قسمين :

إما مذكرات شهود العيان الذين عاصروا الحوادث بأنفسهم ورأوها رأى العين .

أو كتب المؤرخين الذين فحصوا هذه المذكرات واستخلصوا منها مادة التاريخ بعد أن يخلصوها من ملابسات وظروف العصر الذى حررت فيه .

القسم الأول :

١ — وأول المذكرات التى دونها شهود العيان — بل وأهمها فى موضوعنا هذا ، وأولاها بل وتكاد تكون وحدها مصدر تاريخ مفصل لهذه الحقبة هو الكتاب الذى وضعه باللغة الإنجليزية ستافرو لاسنجيان الرومى وطبعه فى لندن سنة ١٧٨٤ وهو A History of the revolt of Ali Bey against The Ottoman .

وقد شرح فيه المؤلف بإسهاب حياة وعصر على بك الكبير إذ قد شاهد حوادثه بنفسه لمعاصرته له واشتغاله فى حكومته موظفاً — وحبذا لو عنى أحد

المترجمين بترجمته إلى العربية — والنسخة الوحيدة من هذا المؤلف موجودة بدار الكتب المصرية .

٢ — ثم كتاب فولنى الرحالة الفرنسى الذى زار مصر وراقب الحوادث بنفسه ونشر كتابه Voyages En Egypte et en Syaia pendant Les anneés 1783 - 84 - 85 - Par C. F. Volney

وطبع فى باريس ١٧٨٧ م .

٣ — كتاب براون « سياحة فى أفريقيا ومصر وسوريا من سنة ١٧٩٢ م » إلى ١٧٩٨ مطبوع فى لندن ١٧٩٩ وموجود منه نسخة واحدة فى دار الكتب المصرية .

وقد زار براون مصر بعد عهد على بك الكبير (فى زمن مراد بك) وكانت ملابسات العصر ورجاله لا تزال فى ذهن الزمن .

٤ — وزار مصر أيضاً سافارى بعد عهد على بك الكبير وأرسل مجموعة رسائله إلى ولى عهد فرنسا وفيها تفصيل لحوادث مصر فى ذلك العصر Savary Lettres Sur L'Egypte فى مجلدين نشرت فى باريس سنة ١٩٥٢ .

٥ — كما زار مصر فى عهد أبى الذهب فى نفس الوقت الذى زال فيه نفوذ على بك الكبير رحالة إنجليزى اسمه بروث وكان له صلة علاقة ودية مع أبى الذهب الذى خلف على بك الكبير حتى سماه يعقوب الحكيم .

وفى فبراير سنة ١٧٧٣ استصدر بروث فرماناً من أبى الذهب إلى شركة الهند الشرقية التجارية . وقد كتب هذا الرحالة مذكراته ونشرها فى أدنبره سنة ١٧٧٤ .

James Bruce — Travels to discover The Source of The Nile in The years of 1769 — 70 — 71 — and 1773.

٦ — وأهم المصادر العربية لمعاصرى هذه الفترة هى مذكرات الشيخ الجبرتى

التى أسماها جنراله — وهى سجل لحوادث اليومية التى كان يدونها الشيخ بنفسه والتى يراها أو يسمعها شخصياً وهذا الكتاب هو التاريخ الوحيد المفسر لذلك العصر ورغم ما به من تطويل ممل إلا أنه خلاصة قيمة لحوادث تلك الأيام .

وهو فى جزءان طبعا فى القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ .

القسم الثانى :

وكتب المؤرخون عن هذه الفترة للأسف قليلة ، لا بل ونادرة ونذكر منها باللغة العربية الكتب التالية :

١ — فتح مصر الحديث « أحمد حافظ عوض » .

٢ — الحملة الفرنسية وظهور محمد على « الدكتور فؤاد شكرى » .

٣ — على الكبير « الأستاذ أحمد خيرى سعيد » .

٤ — تاريخ مصر « للأساتذة عمر الاسكندرى وسليم حسن » .

٥ — مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل « للأستاذ على أحمد شكرى »

٦ — عصر المماليك « للمؤلف » .

ويوجد مئات من الكتب باللغات الأجنبية لم يتسع الوقت لاطلاعى عليها .

مصر الحديثة

يقسم المؤرخون تاريخ مصر العام إلى ثلاثة أقسام :

القديم : ويبدأ من عهد انبثاق الحضارة إلى انقضاء العهد الفرعونى بالفتح العربى

المتوسط : من الفتح العربى ، ويختلفون فى تحديد نهايته — فالبعض يحدده بالحملة الفرنسية أو ببعض حوادثها — مثل المقاومة الأهلية ، أو بخروج الحملة الفرنسية ذاتها .

الحديث : ومن نهاية ذلك العهد يبدأ تاريخ مصر الحديثة الذى يرى أكثر المؤرخين أن يفتتحوه بقيام الأسرة العلوية الكريمة — أو يبدأ عهد محمد على الكبير — إذ أن خلاف المؤرخين منصب على تحديد نهاية القرون الوسطى وبدء الفترة المسماة — بمصر الحديثة — أى بالعهد الذى يبدأ من تاريخنا الحديث .

١ — الحملة الفرنسية :

يرى حافظ عوض فى كتابه القيم « فتح مصر الحديث » أن تاريخ مصر الحديثة يجب أن يبدأ من قدوم الحملة الفرنسية — إذ يقول فى مقدمة كتابه : « كان ظهور السفن الفرنسية بمن تقل من جنود وضباط وقواد وعلماء الخ فاتحة عصر جديد لمصر بدأ بالاحتلال الفرنسى — ثم عقب بالنزاع بين أوربا حول هذه البقعة المسماة وادى النيل !!... وذلك النزاع الذى مابرح يظهر على جميع الأشكال وغريب الأحوال — من مطاردة الفرنسيين وإخراجهم من مصر إلى معاضدة المماليك بإنزال قوة انكليزية على الشواطئ المصرية ثم بمقاومة محمد على وإيقافه

عند حد لا يتعداه فى مشروعاته ومطامعه ثم بالمعارضة فى فتح قنال السويس إلى التداخل فى أمور مصر المالية حتى كانت الثورة العرابية والاحتلال .

فهو يرى أن الحملة الفرنسية هى افتتاح سجل تاريخ مصر الحديثة لأن هذه الحملة هى التى فتحت مصر للمجال الدولى وهى فيصل بين عهد القرون الوسطى والاقطاع والنظم القديمة والعهد الجديد الذى وصفته وسنته حملة بونابرت فى مصر — والواقع أننا مدينون لتلك الحملة بالكثير لأنها بقدومها أشعلت حماسة الشعب وذكت وطنيته وذكرته بحال التعاسة التى يعيش فيها — وإليها يرجع الفضل فى ارتقاء روح الشعب وثبات وطنيته سواء بما فرضته من الحنق على المصريين فقوت فيهم روح المقاومة والتضامن وأحيت الرأى العام وحفزته . أو بما أدته من خدمات للمصريين فبعثت فيهم روح البحث والاستقصاء وحب المعرفة والتطلع إلى المثل العليا فقد كانت أيام الاحتلال زمن حرب وثورة من جهة وزمن معارف وبحث من جهة أخرى . فحدثت من جراء ذلك هزة عنيفة فى البلاد تمخضت عنها الفكرة الاستقلالية التى هى بداية عهد مصر بتاريخها الحديث .

* * *

٢ — المقاومة الأهلية :

ويرى عبد الرحمن بك الرافعى فى سلسلة كتبه القيمة عن تاريخ مصر أن تاريخنا الحديث يجب أن يبدأ من المقاومة الأهلية للحملة الفرنسية — أى من مقاومة الأهالى لجنود جيش بونابرت ، لأنه يرى فى مقاومة الأهلين العزل من السلاح لتلك الحملة المنتصرة حدثاً جديداً فى التاريخ يجب أن يبدأ منه تاريخنا الحديث .

والواقع أن كل متتبع للتاريخ المصرى ليعجب كيف أن الأمة بعد طول رضوخها لعهد المماليك والأتراك وحكمها الاستبدادى مئات السنين تظهر تلك القومية الجامحة عند أول حافز .

أليس هذا وحده كافياً لأن يفتح به عهداً جديداً من التاريخ .

ولكن الواقع أن روح الشعب المصرى قد بقيت سليمة تحت أقسى أنواع الاضطهادات — وأن نار وطنيته لم تخب قط — وإن طغى عليها بعض الأحيان الجهل والفقر والظلم والاستبداد — ورغم ذلك فإنها عند أول قبس ينبثق فجرها .

٣ — الحكومة الأهلية :

ويرى آخرون من المؤرخين الذين يرون بدء تاريخنا الحديث من حوادث الحملة الفرنسية — إن ما أذاعه نابليون من رغبته وإقدامه فعلا على تكوين حكومة أهلية وإنشاء المجالس النيابية الأهلية هى بداية تاريخنا الحديث .

ولا جدال فى أن تأسيس المجالس النيابية كان نواة لنظام الشورى التى كانت تتوق إليه البلاد — إذ كانت صيحة الشعب فى تلك الحقبة التى سبقت الحملة الفرنسية هى وجوب وضع شئونه بين يدى زعمائه .

فإذا لاحظنا أن هذا النظام وضع سنة ١٧٩٨ م أى فى القرن الثامن عشر فى الوقت الذى لم يكن النظام الدستورى مألوفاً فى أوربا فما بالك فى الشرق ؟ !

والواقع أن هذا النظام كان شيئاً جديداً فى نظم الحكم كان له أثره فى التطورات التى ظهرت بعد ذلك — ولا شك فى أن نابليون بوضعه تلك النظم كان متأثراً بالأفكار والمبادىء الحديثة التى أوحت بها الثورة الفرنسية الكبرى إلى أذهان الناس والتى حملها معه إلى ميادين القتال .

وكان يصح أن يكون هذا بداءة عهد جديد فى التاريخ لو لم يخلف نابليون عهوده للمصريين كما أخلفها بعده بقرن الرئيس ولسن .

٤ — سفر الجنرال يعقوب لأوربا للمفاوضة فى سبيل استقلالها :

عقب خروج الحملة الفرنسية من مصر . تجمعت على مصر الأوزار الناجمة عن

تعقد الحالة الدولية وتشعبها — إذ كان الأتراك بجيوشهم على أبواب القاهرة شرقاً عند عين شمس ، وكان المماليك على حدود القاهرة غرباً وجنوباً والإنجليز بأسطولهم عند رشيد ، والفرنسيون لا تزال فلول جيوشهم منتظرة النقالات الإنجليزية الحربية التى تقلها إلى موانى فرنسا .

وبينما هذه الأحداث تجرى ، اجتمع أعيان المصريين وزعماؤهم للتشاور فيما سيؤدى إليه حال بلادهم وأرادوا انتهاز فرصة هذه الخلافات الدولية للحصول على اعتراف من الدول العظمى باستقلال مصر عن تركيا — فاجتمع رأى الزعماء على إيفاد وفد مصرى إلى أوروبا للسعى فى الحصول على الاستقلال وانتخبوا جماعة منهم سموهم : « البعثة المصرية » لترافق الجيش الفرنسى العائد إلى أوروبا لتسعى لدى الدول فى تحقيق أمانى المصريين .

وفعلا خرجت هذه البعثة وعلى رأسها الجنرال يعقوب أو المعلم يعقوب وسافرت هذه البعثة إلى انجلترا لهـذا الغرض ونجحت فى الحصول على معاهدة تضاهى معاهدة سنة ١٩٣٦ . وقد نشرنا مقارنة للمعاهدتين فى عدد السياسة الأسبوعية فى ١٠ أغسطس سنة ١٩٣٦ .

وهذا السعى المصرى لدى الرأى العالمى للاستقلال هو بلا ريب فتح جديد فى السياسة المصرية يجوز اعتباره مبدأ لتاريخ ونهاية لعهد .

٥ — وثيقة بيت ابراهيم بك :

ويرى بعض المؤرخين أن سنة ١٧٩٥ التى حررت فيها وثيقة بيت ابراهيم بك هى بداية تاريخ مصر الحديثة وخلاصة تلك الوثيقة أنه فى تلك السنة اشتدت وطأة أحد المماليك على أهل بلبيس فى تحصيل الضرائب فالتجأ الفلاحون إلى الشيخ الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر ليحميهم من جور المماليك . فدعى الشيخ للثورة

فأجابه الأهالى إليها . ولما استفحل أمرها نزل الباشا من القلعة ومعه القاضى إلى بيت ابراهيم بك حيث حرروا وثيقة تعهدوا فيها بإجابة مطالب الثائرين وقد وصف شاهد عيان تلك الحوادث ولعله الشيخ الجبرتى يقول « نزل الباشا إلى بيت ابراهيم بك واجتمع الأمراء هناك وأرسلوا إلى المشايخ فحضروا ودار الكلام بينهم وطال الحديث وانحط الأمر على أن الأمراء تابوا ورجعوا والتزموا بما اشترطه العلماء « الزعماء » عليهم وانعقد الصلح على شروط منها ... أن يكف أتباعهم عن امتداد أيديهم إلى أموال الناس ... وأن يسيروا فى الناس سيرة حسنة ، وقد كان القاضى حاضراً المجلس فكتب حجة عليهم بذلك ، « فرمن » عليها الباشا وختمها » .

وإذا وقفنا قليلا أمام وثيقة بيت إبراهيم بك هذه التى نالها الشعب بجهاده وقدرته لوجدنا أنها لا تقل عن وثيقة « الماجنا كارتاه » أو العهد الأكبر التى نالها الشعب الإنجليزى من الملك جون والتى كانت أساس الدستور الإنجليزى .

وقد كان لهذه الوثيقة أثر كبير فيما بعد على أساسها عملت وثيقة تولية محمد على باشا أريكة البلاد والتى سبق الإشارة إليها . وقد كانت هذه الوثيقة فعلا حدثاً جديداً فى التاريخ المصرى وبداية جليلة لتاريخ جديد .

محمد على باشا — إنه وحده عهد جديد وتاريخ جديد ، ولكن أى الأحداث فى عصره بداءة لهذا التاريخ .

٦ — محمد على باشا :

ويرى محمد بك رفعت — أن تاريخنا الحديث يبدأ من عهد قيام الأسرة العلوية — أى من يوم تولى محمد على باشا الحكم فى مصر .

وهذا هو الذى يراه أكثرية الكتاب والمؤرخين الذين دونوا تاريخنا ، وهم يرون بحق أن الإصلاحات الحكومية والأنظمة الشعبية والحكومة المستقرة التى وضع أسسها محمد على باشا هى بدأ تاريخنا الحديث .

٧ — تولية محمد علي باشا :

ويرى بعض المؤرخين (ومنهم الأستاذ فريد أبو حديد) من القسم السابق أن يحددوا تاريخ بداية العصر الحديث بيوم ١٣ مايو سنة ١٨٠٥ وهو اليوم الذى ولّى فيه الشعب محمداً علياً أريكة العرش المصرى — والبعض الآخر يرجع ذلك التاريخ إلى يوم ٩ يوليو سنة ١٨٠٥ وهو اليوم الذى ورد فيه تصديق السلطان والحقيقة أن التاريخ الأول هو الأقرب إلى الصواب ، لأنه ما قيمة موافقة السلطان بجوار إرادة الشعب الذى فرضت إرادته على جبروت السلطان وعماله ؟ . والواقع أن السلطان لم يرسل موافقته على ذلك التعيين إلا بعد أن عجز عن المقاومة وعندئذ أرسل فرمان التولية منصوصاً فيه « حيث رضى باختياره العلماء والرعية »

ونود أن نلمح فى هذه العجالة إلى أن محمد على قبل الولاية من العلماء بشرطين هما :

١ — ألا تفرض على الناس ضريبة إلا إذا أقرها العلماء وكبار الأعيان .

٢ — أن تجلو الجنود التركية عن مصر .

ولهذا التعهد معنيان جليلان هما :

١ — ان الشعب تنبه لحقه فى تقرير مصيره لأنه باشتراطه جلاء القوات التركية كان يطلب الاستقلال غير المشوب بالاحتلال الأجنبى .

٢ — ان الشعب ممثلا فى زعمائه يشترط أن يكون الحكم دستوريا وبقبول الوالى لهذا الشرط كان تعهداً بالتزام الحياة النيابية فى حكم البلاد ويكون هذا التعهد هو أساس الدستور المصرى الحديث الذى تأيد بالنص عليه بعد ذلك بأكثر من مائة عام بأن الأمة هى مصدر السلطات .

ولقد فطن المؤرخون الأفرنج إلى ما فى ثورة مايو سنة ١٨٠٥ من معان سامية كبيرة فلم يفتهم أن ينوهوا بها : قال تولابل فى كتابه مصر الحديثة « لأول مرة

وقع تغيير سياسى خطير فى الشرق بإرادة الشعب وباسم الشعب ولا جدال فى أن المطالب التى فرضها الزعماء تدل على ما يجيش فى صدورهم من الإحساس بالحرية وما يشعرون به من الحاجة إلى أخذ الضمانات الكافية التى تكفل مراقبة الحكومة — وإذا كانت أنظار الشعب اتجهت نحو محمد على وأجمعت آراء الزعماء على تقليده سلطة الحكم فى ذلك الوقت فما ذلك إلا أن محمد على قد دعا إلى مبادئ الحرية وأعلن فى كل لحظة دفاعه عن حقوق الشعب ومصالحه ونادى بأن علة المحن راجعة إلى سوء الإدارة وعدم وجود رقابة على الحكومة » .

٧ — سقوط القلعة

ويرى البعض من هذا الفريق أيضاً أن يبدأ تاريخ مصر الجديدة من يوم سقوط القلعة فى أيدى المصريين .

لأنه عند ما وصل إلى خورشيد باشا [١] نبأ خلعه وتولية محمد على باشا مكانه رفض أن يخضع لإرادة الشعب وينزل من القلعة ورد الرسل الذين ذهبوا لاستلامها منه قائلا « لقد ولانى السلطان فلا يعزلنى الفلاحون » فلم تكد كلمته تنفذ إلى المصريين حتى أنزله الفلاحون بالقوة من قصره بالقلعة فينصر حق الفلاحين على باطل السلطان وقد قام المصريون فعلا بإنزاله بالقوة من القلعة لأن خورشيد رفض الامتثال لفرمان السطان فحاصرهم المصريون وحدهم فى القلعة ولم يشترك معهم فى هذا الحصار جند محمد على حتى أجبروه على الخروج منها مهزوما .

وان إخراج خورشيد من القلعة لا يمكن أن يقارن فى التاريخ العام إلا بهدم الباستيل . فمن ذلك التاريخ بدأت فرنسا صفحة جديدة من التاريخ شعارها الحرية

---

(١) خورشيد باشا هو آخر والى تركى على مصر — وهو الذى خلعه الزعماء وولوا بدله محمد على باشا .

والمساواة . ومن خروج خورشيد من القلعة بدأ المصريون صفحة جديدة من حياتهم ، شعارها حكم الشعب لمصلحة المحكومين وقيام الحكومة النيابية على أسس دستورية .

٨ — محاولة القضاء على المماليك

ويرى البعض من هذا الفريق أيضا أن يبدأ تاريخ مصر الحديث من يوم القضاء على المماليك وإبادتهم سنة ١٨١٠ بيد محمد على باشا .

والواقع أن هذه الطغمة التى حكمت مصر طول عهدها المتوسط كانت خطراً حقيقياً على الأمن الداخلى وسبة وعاراً على الجيل الذى عاشوه — وكان القضاء عليهم قضاء على الفوضى والاستبداد وبداية عصر جديد فى تاريخنا الحديث .

ولكن سيرى القراء من سياق هذا الكتاب انها لم تكن المحاولة الأولى للقضاء على المماليك — فقد سبق عهد محمد على محاولة أخرى من هذا النوع .

٩ — الواقع أن حكومة محمد على هى بداية تاريخنا الأحدث وليس الحديث

ولا يمكن أن ينكر مؤرخ ما اسبغه عهده وخلفاؤه على البلاد اتصال تذكر على مر الأجيال الا أن الواقع أن محمد على عند ما حضر إلى مصر وجد أسس النهضة موجودة ولكنها مدفونة تحت الرمال فكان عمله المجيد أن أزال الرمال المتراكمة حتى أظهر الجوهر النفيس فى أبهى حلله وأجلى مظاهره .

١١ — رأينا الخاص :

ونحن نرى أن تاريخ مصر الحديثة يجب أن يبدأ من قيام على بك الكبير بإعادة إنشاء مصر الكبرى بحدودها الحقيقية لأن أكثر المؤرخين يقيمون هذا الفاصل لاعتبارين وهما :

١ — تأصل الفكرة الاستقلالية ووضوحها .

٢ — تحقيق هذه الفكرة برغبة الشعب .

وقد تحقق هذان الشرطان فى عهد على بك الكبير وهو عهد يسبق عهد محمد على الكبير بزمان طويل فقد تمكن على بك من تأسيس دولته المظمى وأقام الإمبراطورية المصرية الحديثة الأولى سنة ١٧٦٣ (وهو موضوع كتابنا هذا) مع تمام رضاء الشعب وزعمائه عن حركته وعن شخصيته حتى أن الشيخ الحفناوى شيخ الأزهر وزعيم مصر فى ذلك الحين قال يؤنب المماليك الذين ثاروا على على بك كما روى الجبرتى « لقد ضربتم الأقاليم والبلاد — وكل ساعة خصام وحروب مع على بك » فهذا دليل قاطع على رضاء الشعب على حكومة على بك وعدائهم لمن عداها . تلك الحكومة التى حققت الفكرة الاستقلالية التى تجيش بنفوس المصريين جميعاً حتى اليوم .

ولم يحقق استقلال بلادنا فحسب ، بل حقق أمنيتنا الكبرى فى وحدة الشرق العربى ورفع العلم المصرى مظفراً فى ربوع الشرق الأوسط ، محققاً الإمبراطورية المصرية التى تصبو إليها نفوسنا جميعا .

* * *

إذاً فنحن نميل إلى اعتبار سنة ١٧٦٨ م وهى السنة التى أعلن فيها على بك الكبير استقلال مصر وقطع فيها علاقته مع تركيا هى السنة التى تبدأ فيها تاريخ مصر الحديثة للاعتبارات التى سبق أن وضحناها — وكان من المؤكد أنه لو استتب قدم على بك — ولم يغدر به مملوكه ، أن يسير بالبلاد نحو المجد ويوطد فيها دعامة الملك ، وأن يعيد إقامة مصر الكبرى ولكن بلادنا مقضى عليها دواماً بمثل هذه الظروف السيئة .

المماليـــك[1]

يبتدئ تاريخ المماليك بإقبال أواخر الخلفاء الفاطميين على شراء المماليك الشبان بكثرة من قارة آسيا — لاتخاذهم حراساً وبطانة واستمرت هذه الحال حتى زمن الدولة الأيوبية — وقد استفاد بهم صلاح الدين أعظم فوائد ، فإنه ألف من أولئك المماليك الأشداء جيوشاً قهر بها أوروبا فى جميع الحروب الصليبية وصان بهم استقلال مصر — ولكن خلفاءه ضعفوا عن أن يستخدموهم كما استخدمهم صلاح الدين حتى إذا ولى الحكم الملك الصالح أكثر من ابتياع المماليك وجعل منهم أمراء دولته — فاشتد ساعدهم وقوى جاههم حتى انتهى بهم الأمر إلى قتل آخر ملوك الدولة الأيوبية وهو السلطان توران .

* * *

كلمة « مملوك » هو إسم مشتق من ملك — وهو ظاهر المعنى لا يحتاج لإيضاح وقد ذكر المؤرخون أن منشأ المماليك من جهات « قفجان » من شمالى آسيا ، وإنه لما غزا المغول تلك الأصقاع تحت قيادة «باتوجان» حفيد «جنكيزخان» ساموا أهلها الذل وفتكوا بهم فتكا ذريعاً — حتى هاجر سكان الولايات القزوينية والقوقاسية من ديارهم فضعفت قبائلهم وتشتتت فى بلاد آسيا الصغرى — وكانت تجارة الرقيق الأبيض والأسود فى شدة انتشارها فكان النخاسون يبتاعون أحسن أبنائهم وأجملهم وأقواهم من أقاربهم وكانوا يختطفونهم فيبيعونهم لمن شاء من الأمراء والأعيان والأغنياء فيشب الفتى وقد نسى قومه وجنسيته واندمج فى سلك أمثاله من المماليك تحت رعاية مملوك منهم[2] أو أمير من الأمراء يقربونهم إليهم ،

---

(١) راجع عصر المماليك للمؤلف .

(٢) راجع فتح مصر الحديث لأحمد بك حافظ عوض .

ويحبونهم لولائهم فى خدمتهم فيرقونهم بعد أن يشتد ساعدهم فى بطانتهم ، وعند ذلك تتطلع نفوسهم إلى مواطن العز ومنازل الأمراء والشرف بل إلى الملك ذاته ، لأنهم كانوا يعرفون أن أمثالهم من المماليك الأرقاء الذين ابتيعوا صغاراً وربوا فى أحضان أسيادهم وملوكهم — شبوا على الفروسية والإقدام ووصلوا إلى أرقى مناصب الملك والسيادة — ولم يكن يخفى على صغيرهم قبل كبيرهم إن سلاطين المماليك بعد الدولة الأيوبية وجميع الملوك والسلاطين لم يكونوا إلا مماليك أو أولاد مماليك مثلهم .

* * *

وقد قص المقريزى — فى كتابه عن تاريخ مصر رواية عن المماليك وهى تعطينا فكرة عن الآمال والأمانى التى كانت تدور فى نفس المملوك وهو فى طريقه إلى البلاد التى سيحل فيها — روى الإسحاقى عن الملك « الأشرف قايتباى المحمودى » — أنه لما جلبه الخواجه محمود[1] إلى مصر وكان رفيقه فى الطريق أحد المماليك تحدثا مع الجمال الذى يحملهما إلى مصر فى ليلة مقمرة فقالا — لعل هذه الليلة هى ليلة القدر التى يستجاب فيها الدعاء فليدع كل منا بما يحبه ، فأما قايتباى فقال أنا أطلب من الله تعالى سلطة مصر ، وقال الثانى أنا أطلب حسن الخاتمة — فكان قايتباى سلطاناً وأصبح صاحبه أميراً فكانا إذا اجتمعا يقولان فاز الجمال من بيننا » .

فانظر كيف كانت تطمع نفس المملوك وهو فى طريقه إلى أرض الميعاد ؟؟!!

* * *

ويمتاز البكوات المماليك (أى مماليك العصر التركى — أو القسم الثالث من المماليك) بأنهم امتزجوا بالمصريين ، واندمجوا أكثر من سابقيهم فى الكتلة

---

(١) راجع ولكن باللغة الألمانية .

الأهلية — وقد عاشوا كدأبهم فى الحياة المطلقة ، فقليل منهم من تزوج وكون له أسرة — إذ كان دينهم الحروب والفروسية ، فلا يرضون بشىء يشغلهم عنها — ومعظمهم كان يموت فى ساحة الوغى وسنه لا تتجاوز الخامسة والثلاثين ، ومن عاش منهم عيشة هادئة ورضى بالزواج (وهو النزر اليسير) كان نسله يندمج على مر الأيام فى المصريين .

وكان المماليك يعيشون فى ترف كامل فى مسكنهم وملبسهم ومعيشتهم ، على غير عادتهم الأولى المبنية على الخشونة والسذاجة فى كل شىء . وصارت حلة البك منهم لا يقل ثمنها عما يعادل ٦٠٠ جنيهاً الآن (مع عظم قيمة النقود فى تلك الأيام) ولا يمتطون إلا خيول نجد العربية الأصيلة التى يبلغ ثمن أحدها ٣٠٠ جنيه ويقال أنه عند موت على بك الكبير قدرت النقود التى فى حيازته بمبلغ ٨٠٠ ألف محبوب ذهب كما وجدت معه متروكات قدرت قيمتها بمبلغ ٣ ملايين محبوب ذهب أى بما يقدر بمبلغ ٩٦ ألف جنيه مصرى بالعملة الحالية ، وقد ذكر فولنى[1] أن على بك ابتاع خنجراً مرصعاً بالجواهر الكريمة بمبلغ ٢٥٠٠٠ محبوب .

ولم يكن ذلك قاصراً على البكوات أنفسهم ، بل إن مماليكهم الذين لم يرتقوا بعد إلى مراتب الرياسة كانت ركائبهم مزينة بأفخر الحرائر ، ومزركشة من كل جانب بالذهب والفضة .

ورغم هذا التبذير فإن حالته كانت مطاقة لأن ما كان يجنى من التجارة الإفرنجية التى أحيا طريقها على بك ، كان يصرف فى داخل البلاد — فالثروة التى كانت ترد متجزئة إلى خزائن الأمراء وتتجمع فيها ، تنفق بعد ذلك إلى التجار من الأهلين بعد دفع الخراج — وكانت بيوت المماليك مفتوحة للقادمين أثناء الليل والنهار ، وكانوا فى الأعياد يوزعون كثيراً من المأكولات على الفقراء والمساكين .

---

(١) راجع Vabney .

ولم يكن أمراء المماليك وحدهم هم أصحاب القصور الفاخرة — بل شاركهم فى ذلك كثير من أهل البلاد أنفسهم — وكان من بين المنازل المطلة على بركة الازبكية (حديقة الازبكية الآن) منزل لتاجر شهير يدعى « أحمد الشرايبى » غاية فى الحسن ، وكانت لهذه الأسرة ثروت طائلة ، وبيتهم يؤمه العلماء من كل جانب لاشتماله على كل ما يرغبه الطالب من الكتب ، التى كان يجمعها من كل سوق ولا يضنون على أحد بإعارتها .

وأن اهتمام هذه الأسرة وأمثالها بجمع الكتب وتسهيل إعارتها يدلنا بعض الدلالة على مقدار إقبال الناس على العلم فى تلك الأيام ، ويؤيد لنا ميل الناس إلى الانقطاع إلى طلب العلم ذكر ذلك العدد الكبير من أهل العلم والتأليف الذى عنى « الجبرتى » بكافة تراجمهم من مشايخ الأساتذة والعلماء والمؤرخين والشعراء ، وغيرهم ممن ليس لهم نظير فى زماننا الحاضر .

* * *

بقيت نقطة هامة عن هذا العصر الغامض تحتاج إلى توضيح وهى ما يتساءل عنه أهل زماننا — كيف يتولى شئون البلاد مماليك يعرضون فى أسواق الرقيق؟ — وكيف رضى هؤلاء بذلك ؟ ! ...

— فبريطانيا العظمى ارتقي عرشها جورج الثالث فى سنة ١٧٦٠ وهو من أسرة ألمانية وكان يجهل اللغة الإنجليزية . . .

— وأذلت الروسيا أميرة ألمانية تآمرت مع الحرس القيصرى بزعامة عشيقها على قتل زوجها بطرس الثالث — ومجدها التاريخ باسم كاترين العظمى . . .

— وخضعت أسبانيا ومستعمراتها لملوك من أسرة بربون الفرنسية .

— ورضيت صقلية وسردينيا بحكم أمراء من البوربون .

ولما كان الإسلام لا يعترف بأفضلية عربى على أعجمى — عملا بمبدأ « إن

أكرمكم عند الله أتقاكم » — متى توافرت فيهم الكفاية والقدرة على الاضطلاع بشئون الحكم . . . وبالأخص إذا تميز هؤلاء الأرقاء — المماليك — بعبقرية حربية . . . وواقع الأمر أن المماليك كانوا كلهم يجلبون من قلب آسيا — من المغول والتتر — ومن هؤلاء نبغ أفذاذ الفاتحين من أمثال « جنكيزخان » الذى امتد سلطانه من البحر الأبيض إلى المحيط الهادى — « وأتيلا » ساحق أوروبا ومذل الرومان وتيمورلنك العاصفة التى طاحت بعثمات التيجان ، و « باير » مؤسس الدولة المغولية فى الهند .

وقد أصبح المماليك فى أواخر القرن ١٨ عشر وقبل ذلك ، ولا فرق بينهم وبين أهل البلاد إلا من حيث البشرة وعجمة خفيفة فى اللسان ، وفيما عدا ذلك ، فقد كانت عادات البلاد وتقاليدها وثقافتها هى عاداتهم وتقاليدهم وثقافتهم ، وينسون موطنهم الأصلى ويخلعون جنسيتهم الأولى ويتأقلمون .

هذا هو المعنى الذى توارد فى خواطر المصريين فى ذلك القرن إذ كانوا ينظرون للمماليك كعنصر تخصص للحرب وأنهم قد أصبحوا أصلح العناصر لهذا الفن — ولما كان السائد أن الشعب جسم تخصصت أجزاؤه لأعمال متعددة متباينة فتوزعت الوظائف بينهم بحكم لياقتهم الفطرية .

* * *

وقد فات المؤرخين أن لمصر دون بقاع العالم مقدرة عجيبة لا بل وفريدة على هضم جميع الأجانب الذين يدخلون فى سير عجلة حياتها وتجعل منهم على مر السنين مصريين — وتؤقلمهم بشمسها الساطعة ونيلها الجارى فيصبحوا وقد اندمجوا فى كتلة الشعب وأصبحوا منه — وقد كان المماليك يسمون أنفسهم ، وكان الشيخ الجبرتى مؤرخ ذلك الزمن يسميهم المصريون .

مصر تحت سيطرة الأتراك

قبل الكلام على قيام على بك الكبير وعهده يجب أن نعطى للقارىء فكرة عن مصر تحت السيطرة التركية — أو العهد الثالث من عهود المماليك [1].

لما فتح السلطان سليم الأول مصر فى الثلث الأول من السادس عشر (٢٤ يناير سنة ١٥١٧) خضعت البلاد لحكم آل عثمان — وظلت فى حوزتهم مدة الثلاثة القرون التالية تقريباً .

وقد رتب السلطان الحكومة الجديدة فى مصر بأن جعلها فى أيد متعددة حتى يضمن بقاءها فى يده أطول مدة ممكنة ، وخوفاً من أن يستبد بها أحد ولاته ولأنه كان من جهة أخرى فى حاجة إلا موالاة المماليك واستمالتهم إليه ليأمن جانبهم فابتكر لإدارة شئون البلاد أسلوباً أحكم تدبيره بحيث إذا طبق أفضى إلى تحقيق أمنيته ، من ذلك أنه جزأ السلطنة العامة أجزاء جعل كل جزء منها وقفاً على وجه يقتضى مراجعة الدولة العلية وتداخلها كلما اختل التوازن والتعادل من فوق تلك الأجزاء [2].

وكانت الحكومة تتألف من الباشا وهو الذى يحضر من الاستانة لينوب عن عن السلطان فى الحكم ، ويمثله فيها لدى أهلها وحكامها وكانت تنحصر مهمته فى إبلاغ الأوامر التى يتلقاها من السلطان إلى الديوان وإيصال مبلغ الجزية إلى خزينته وصيانة البلاد من الاعتداء الخارجى ومقاومة نمو الأحزاب وتفاقم خطرها وهذا الباشا هو غير الوالى « زعيم مصر . . . الذى يتبصر فى القاهرة وخدمته

---

(١) راجع كتاب المؤلف عصر المماليك .

(٢) لمحة إلى مصر تأليف كلوت بك ص ٧٦

إزالة الخواطى وهن النساء الفاحشات ووقوع أولاد الزنا وعليه جرف الخليج الناصرى فى كل سنة (١).

وقد رتب السلطان للباشا « جنوداً وكتخذا — وهو وكيل الباشا — ومهرداراً — أمين خاتمة — وخزنداراً — أمين صندوقه — وترجاناً ، ورئيس ديوانه وأغاوات — وهم معية الباشا — وجعل سكنه بالسرايا التى هى داخل قلعة مصر ورتب له أيضاً ديوان أفند وصحبها أفنديسى وهو سكرتير الديوان أو رئيس التكية .

وإلى جانب الباشا أقام السلطان ديواناً ، وقد استعيض عنه بديوانين فى عهد السلطان سليمان القانونى ، الديوان الكبير والديوان الصغير وكان الأول يتألف من رؤساء الأوجاقات — وهى الفرق العسكرية العثمانية — وضباطها الأغوات وأمير الحج ورؤساء المذاهب الأربعة والقاضى — نائب السلطان فى الأحكام الشرعية — ويحضر فى كل سنة من استانبول إلى مصر ووظيفته أن يقضى بين الناس بالعدل — وكان للقاضى التركى نواب فى القاهرة والأقاليم ، ثم كبار أصحاب الوظائف والعلماء .

أما الديوان الصغير فكان يتألف من كتخذا الباشا والدفتردار — وعليه الحضور فى كل ديوان لتحصيل الأموال الأميرية بموجب دفتر الروزنامجى — كبير الأفندية والحاكم عليهم وخدمته تحصيل الأموال الأميرية وصرفها فى مرتباتهم المرتبة بموجب دفتر السلطان سليم ، وكذلك كان يحضر هذا الديوان الصغير مندوبون من الأوجاقات .

وكان الديوان الكبير يفصل فى الموضوعات الهامة ولا يجتمع إلا بأمر الباشا ومع ذلك فقد كانت له سلطة نقض أوامر الباشا نفسه — وأما الديوان الصغير

---

(١) شفيق غربال بك « مصر عند مفترق الطرق »

فكان ينعقد باستمرار للنظر فى شئون البلاد العامة وعلى الباشا القيام بتنفيذ قراراته

ومما هو جدير بالملاحظة أن الباشا كان مسلوب السلطة فعلا فى كل من الديوانين ، كما أن أصحاب الأثر الفعال فى الحكم والإدارة والعنصر البارز فى حكومة مصر فى ذلك العهد ، كانت الأوجاقات ، وهذه كانت سته ، بلغ عدد رجالها عندما ترك سليم البلاد الاثنى عشر أو الأربع عشر ألفاً ، ثم أضاف إليهم السلطان سليمان القانونى أوجاقاً سابعاً من المماليك الذين طلبوا خدمة السلطان ، فكان رجال الأوجاقات « هم أصحاب الكلام وعليهم الاعتماد . وهم المديرون بالقاهرة — ومن خدماتهم عدا حضور الديوان ، حفظ القلاع على الحدود المصرية وتحصيل الأموال المصرية والإشراف التام فى القاهرة على الباشا ورجاله سواء بواسطة كبار الأوجاقات المقيمين فى القاهرة ، أو بواسطة من يقيم منهم فى الأقاليم وعلى الخصوص ، الجوربجية ، وكان أوجاق الانكشارية أهم هذه الأوجاقات السبعة فالانكشارية هم أوجاق السلطان ، ولأغا الانكشارية الرياسة العليا على ضبط القاهرة — ومنهم كبار أصحاب الوظائف كالتخذا والجوربجية وهم أعيان الجهات وخلافهم [1] .

وكان قوام الإدارة الحكومية فى الأقاليم السناجق ، وهم أصحاب الحكم وعددهم متغير — يحتفظ السلطان بتعيين سناجق الثغور — الإسكندرية ودمياط والسويس ثم كتخذا الوزير أو الباشا ويحضرون من الآستانة ، وأما بقية السناجق فيعينون فى مصر ومن المماليك أنفسهم ، ومنهم سنجق الخزنة وأمير الحج وحكام الولايات أو الأقاليم والخفر بالقاهرة — ويلاحظ مما تقدم أن السنجق لم يك دائماً من حكام الأقاليم كما لو كان تعيين السناجق ووكلائهم ، ويعرفون باسم الكشاف يحدث من بين البكوات المماليك المتنافسين على هذه الوظائف ،

---

(١) الحملة الفرنسية وظهور محمد على ص ٩ وما بعدها تأليف الدكتور محمد فؤاد شكرى

ونتيجة ذلك أن أصبحت الحكومة الأقليمية فى الحقيقة فى أيدى البكوات المماليك

* * *

وعلى ذلك فقد شاهد هذا العهد فى مصر وجود سلطات ثلاث — الباشا والاوجاقات والمماليك .

ولما كانت حكومة الآستانة تكثر من تولية الباشاوات وعزلهم ، وكان هؤلاء على خلاف مستمر مع رؤساء الأوجاقات فقد اتفق الجميع على إغفال تام للباشا وشأنه فقد كان يقابل عند حضوره إلى مصر لاستلام نصيبه بكل حفاوة واحترام ظاهرين فى مبدأ الأمر حتى إذا استقر به المقام قليلا بدت له الحقيقة الواضحة وهى أنه مسلوب السلطة والنفوذ الفعلى ، وأن فى مقدور رؤساء الأوجاقات أو المماليك أنفسهم لو اتفقوا أن ينزلوه من منصبه ويولوا غيره حتى يحضر خلافه من استانبول .

أما رؤساء الأوجاقات وضباطها فقد كانوا يحضرون من الآستانة ، ومع مضى الزمن أصبحوا يجندون من المماليك وأهل البلاد ، وتعود الذين يحضرون من الخارج الحياة الهادئة فى مصر ، فاندمجوا مع الأهالى وتمصروا وتأقلموا فانفسح المجال لانفراد المماليك البكوات بالسلطة الفعلية فى البلاد تدريجياً ، وبخاصة لأن هؤلاء كانوا أقرب فى الحقيقة إلى المصريين فى حياتهم وأعرف بشئونهم من السلطات الأخرى .

وبذا استتب الأمر للمماليك من جراء تنازع السلطات وصار لزعيمهم الذى يُعرف باسم « شيخ البلد » الكلمة العليا (كعزل) الوالى نفسه وطرد العثمانيين من البلاد وقطع صلاتهم بتركيا .

وكان المماليك قد تعودوا من قديم الزمان جلب مماليك أحداث وتدريبهم ليكونوا لهم حاشية وأنصاراً فسمحت لهم الدولة بالسير على هذا النظام ، فأصبح

لزعمائهم قوة لم يعد للولاة قبل تدفعها وذلك أن المماليك الأحداث الذين يشترون بالمال كانوا يحررون عادة بعد بضعة أعوام فيبغون الحرية لأسيادهم حتى إذا ولجوا الرق ، وصاروا أنفسهم بكوات لا يألون جهداً فى تلبية الأولين ، حتى استمدوا منهم المعونة ، فلشيخ البلد دائماً عصبة من مواليه وعتقائه البكوات يعظم بها شأنه وصار للمماليك قوة لم يكتفوا باستخدامها فى عزل من أرادوا من الولاه بل أخذوا يطمحون إلى التخلص من السيادة العثمانية جمله وإعلان الاستقلال .

وعندما زار فولنى مصر[1] فى ذلك العهد تقريباً قدر عدد المماليك بـ ٨٥٠٠ مملوك من كبار المماليك بخلاف الحاشية والرقيق والاتباع .

ولم ينتصف القرن الثامن عشر حتى أصبح الشعب المصرى غالبا فى ثوب مغلوب ، من ذلك أنه استرد أراضيه المغتصبة بطريقة غير مباشرة — وذلك لأن السلطان سليم كان قد اعتبر كل شبر صالح للزراعة فى مصر ملكا شخصيا له ، وكانت الأراضى تقتطع للسناجق الأربعة والعشرين ، وهؤلاء يستغلونها لحسابهم على شرط أن يدفعوا للخزانة العامة ضريبة فاحشة يذهب بعضها إلى الأستانة فى صورة غلال وأموال ، ويصرف بعضها الآخر للحامية التركية والوالى .

وما كان السناجق ووكلاؤهم الكشاف يعرفون كيف تستغل تلك الأراضى ، ومن ثم كانوا يؤجرونها للملتزمين وهم متعهدو الأرض يتولونها ويستولون على على محصولها لقاء مبلغ من المال والغلال يسلمونها للكشاف . . . وبهذه الطريقة آلت الأراضى الزراعية كلها إلى الملتزمين المصريين الذين استفادوا من تعاقب السناجق على الاقطاعات والإكثار من إبدال كشاف بغيرهم فاحتووا على معظم الريع وطابت نفوسهم للسناجق بالقليل وبذلك وفروا ثروة الفلاح للفلاح . . . وقد احتفظ الفلاح بالكثير من مظاهر السيادة القومية — فمن بين صفوف

---

(1) Volney . Voyges En syrie et En Egypti pendand Les An néas 1783-1784 et 1785 ete (2 Vols) Paris 1787 .

الفلاحين برز علماء الأزهر — ومن بين صفوفهم خرج جنود تألفت منهم الكتلة الكبرى من الحامية التركية وجيوش السناجق الصغيرة — وأنجب الفلاحون كبار العصبات فى بيئة الفلاح — حتى لقد حسب الحكام لهذه العصبات ألف حساب .

هذا فى الريف — أما فى المدن فقد استأثر أفراد الشعب بجملة الفنون والصنايع والحرب واحتكر تجار القاهرة والثغور كافة الشئون المالية وتدريجيا جعلوا من القاهرة مركزاً تجارياً كبيراً ذا صيت وقد اعترف السلطان بأهميتهم فأدمجهم فى عضوية المجلس وقد اجتهد أعيان القاهرة وتجارها فى أن ينخرطوا فى فى سلك ضباط الوجاقات أى رجال الحكم — فاشتروا مراكز الرياسة وصاروا ضباطاً عظاما فى الحامية التى كانت تركية ثم تمصرت ، وأصبحت من العوامل الفعالة فى أضعاف السيادة التركية وتمهيد السبيل لقطع العلاقة الضعيفة التى تربط القاهرة بالاستانة (١) .

* * *

بل وأزيد من ذلك أصبح الأمراء المماليك يعينون رؤساء الانكشارية « وهم جند السلطان » وقد ولى على بك رياستهم لأحد أمرائه وحاربت تلك الفرق ضمن جنود على بك ضد الأتراك فى حروب الاستقلال .

---

(١) على بك الكبير حياته وعصر — الأستاذ أحمد خيرت سعيد .

زعامة الأزهر للحركة الفكرية والوطنية

المؤرخ الذى يكتب لعصر من العصور عليه أن يعطى للقارئ فكرة عن الزمن الذى تدور فيه الحوادث التى يكتب عنها — وإذا كان القرن العشرين هو قرن الحرية الفكرية والسياسية وسيادة الديموقراطية وحكم الشعوب لنفسها ، فقد كان القرن الثامن عشر هو قرن الظلم والاستبداد وسيادة الأتوقراطية ، وما سمى فى أوروبا بالحق الإلهى الملوك فى حكم الشعوب التى تخضع لسلطانها ...

فى هذا العصر حكم العالم كله الطغاة والجبابرة العتاه فردريك طاغيه بروسيا .

وكاترين قاتلة زوجها الثالث وموزعة اقطاعيات روسيا لعشاقها .

وأليصابات طاغية أسبانيا موطن محاكم التفتيش التى ترتعد الفرائص لذكر فظائعها حتى الآن .

وجيمس الثالث معطل الدستور الإنجليزى !..

ولويز الخامس عشر والسادس عشر التى قامت الثورة الفرنسية نتيجة لسوء تصرفها ...

* * *

هذا هو القرن الثامن عشر الذى جرت فيه هذه الأحداث وهذه عينة لفريق من حكام تلك الأيام — على سبيل التمثيل لا على سبيل الحصر — وإذا كان الضغط العالى يسبب الانفجار فقد انطبق هذا القول حقيقة على القرن الثامن عشر — فقد أنتج حكم هؤلاء الطغاة الظلمة وحكمهم الناس الشديد المرارة ، انفجاراً من كل مكان فى العالم — وثورة فى كل بقعة من بقاع الأرض ، ولم ينقض هذا العصر حتى قضى على الظلم والاستبداد وفساد الحكم بالثورات الطاغية التى شبت

فى فترات متقاربة وأماكن متباعدة —

فإذا اعتبر القرن الثامن عشر عصر الظلم فهو من ناحية ثانية كان الأداة التى لقى الاضطهاد مصرعه على يديها — فى هـذا القرن نشبت الثورة الفرنسية الكبرى وأعيد الدستور الإنجليزى وأعلنت حقوق الإنسان ، وقامت المبادئ الديموقراطية والاشتراكية فى الحكم ، ورتبت علاقة الحاكم بالمحكوم على مبادئ دستورية مكتوبة ولأول مرة زال الحق الإلهى المطلق للملوك وحل محله المبدأ الجديد مبدأ أن الأمة مصدر السلطات والحقوق .

* * *

وأن المتتبع لحوادث هـذه الفترة ليجدها تتميز بميزتين متفارقتين ، فالميزة الأولى وجود هذا الرعيل من الطغاة يقابلها الفضيلة الأخرى هى ظهور طائفة أكثر من خيرة المفكرين لمقاومة الاستبداد ، وتوضح مبادىء حقوق الإنسان — نذكر منهم جان جاك روسو مبدع العقد الاجتماعى سنة ١٧٦٢ . وفولتير — الذى عبر عن أمانى وآلام كل مظلوم — إن ما نشره هذان الكاتبان وحدهما لا يقل عملا إيجابياً عن الثورة الفرنسية نفسها — لا بل أن أثرها يزيد عمقاً عن الأثر الذى تركته الثورة — إذ انحدرت الأخيرة ناحية إجرامية بينما بقيت كتابة هذين الفحلين أثراً دائماً أبديا للمثل العليا الإنسانية .

* * *

وأن الطبقة المستنيرة من كل زمان ومكان هى أول من يشعر بالظلم ويقاومه ، وينصب نفسه مدافعاً وحاميا لغيره من عامة الشعب .

* * *

فى ذلك الزمان شعرت مصر بالظلم الواقع عليها ، كان حكم الأتراك فوضى قاسية وظلم غير منظم ، وكان المماليك لاهين عن الشعب يعيشون فى عهد إقطاع

ظالم — وكان الشعب فى منتصف القرن الثامن عشر نتيجة ليقظته بدأ فى التذمر فى حالته التى يعيش فيها ويعرب عن سخطه على سوء حاله — ويفكر فى طريقة ناجحة للخلاص من السيادة التركية وما ربطته به من فوضى وجور وما جره نظام الحكم من ظلام دامس طال أمده ٣ قرون متوالية . وكان من الطبيعى أن يتزعم هذه الحركة الطبقة المستنيرة من الأمة لتقود من ورائها بقية الشعب إلى طريق الخلاص من هذا النظام .

ولهذا لا نستغرب أن نجد على رأس الثورات فى ذلك الحين العلماء لأن العلم تركز فى طوال عهد المماليك فى الأزهر ورجاله ، وكان الشعب من ورائهم ينساق لنصحهم ويتبع أوامرهم ما يقضون .

لا بل إن هذه الظاهرة استمرت بعد ذلك حتى القرن العشرين أليس عرابي وسعد زغلول من رجال الأزهر وأبنائه .

* * *

وعلينا أن نقف متأملين لحظة فى حيوية هذه الأمة التى لم يقض على روحها ولا مصريتها ظلم دام ثلاثة قرون .

وقد بسطت مصر سيادتها الروحية والفكرية — بواسطة الأزهر — لا على الأهليين المصريين فقط — لا بل على الشرق كله . وقد كان الأزهر منبع جميع المصلحين فى الشرق فى جميع الأزمان وكذلك كان الكعبة التى يحج إليها الطلاب من جميع الأنحاء .

وكان نفوذ الأزهر مبسوطاً دواما حتى على دار الخلافة نفسها — وفى الأستانة وفى داخل قصر السلطان نفسه —

وإن كان الأتراك الغزاة قد بسطوا سلطانهم على مصر فقد بقيت نواح من الحياة المصرية الاجتماعية لم يلتفت لها الأتراك ولم يقيدوها .

فقد ترك الأتراك المصريين ينظمون شئونهم الروحية والفكرية دون تدخل منهم — ولما كان الأزهر كما قدمنا هو القلب النابض والمنظم للشئون الروحية فقد التقط العلماء شعلة الفكر والروح وسيطروا عليها .

واتجه رجال ذلك العصر — طيب الله ثراهم — إلى توجيه الشعب وجهة قومية صرفة — ورجحت بهم كفة الأحداث الكبرى — وإن كانت بعض الحوادث السياسية تبعد مدى تأثيرهم فإنهم كانوا دواما على استعداد للظهور فى الوقت المناسب لترجيح كفة الناحية التى للبلاد مصلحة فى رجوحها — ولهذا لم يغفل على بك الكبير هذه الناحية — فقد داوم على صداقتهم واستمداد مشورتهم ورضاهم على كل حركة أقدم عليها وتنفيذ نصيحتهم فى كل أمور الحكم وما يشيرون به .

وكان وصول على بك نفسه — كما سنوضح — كشيخ للبلد أى حاكم لمصر بناء على اختيار ورغبة العلماء .

* * *

وهكذا مهد الأزهر لنفسه قيادة الحركة الفكرية والاستقلال طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وحتى القرن العشرين — فقد انبعثت شرارات الثورات بلا انقطاع من الأزهر من أيام على بك الكبير حتى ثورة مصر الكبرى سنة ١٩١٩ .

الحالة السياسية والدولية

عند قيام على بك الكبير

قدمنا أن العهد العثمانى قد تميز بوجود ثلاث سلطات متضاربة هى :

الباشا

الجيش والوجاقات

المماليك والأهلون

° ° °

ولما كانت حكومة الأستانة تكثر من تولية الباشوات وعزلهم ، خوفاً منهم لئلا يتحدوا مع غيرهم من السلطات ، وكان هؤلاء فى خلاف مستمر مع رؤساء وضباط الوجاقات ، وقد تعود الجند العثمانى ورجاله الحياة الهادئة فى القاهرة ، وقد اندمج خلق كثير من الأهلين أنفسهم فى سلك تلك الفرق فقد انفسح المجال لانفراد المماليك البكوات بالسلطة فى البلاد تدريجيا وبخاصة لأن هؤلاء كانوا أقرب فى الحقيقة إلى مصر والمصريين فى حياتهم .

وفى أواخر القرن السابع عشر استتب الأمر للبكوات المماليك من غير منازع لأسباب أربعة .

أولا : لانشغال الدولة العثمانية بحروبها فى أوروبا .

ثانياً : لرغبة الدول الأوربية وخصوصاً روسيا فى النكاية بتركيا بتقوية النفوذ المصرى .

ثالثاً : اتحاد المماليك وزيادة نفوذهم حتى صار لزعيمهم الذى عرف باسم شيخ البلد الكلمة العليا .

رابعاً : انبثاق فجر الروح القومية فى الشعب المصرى ورغبته فى الاستقلال وطرد العثمانيين من مصر وقطع صلاتهم بتركيا .

أولا : انشغال الدولة العثمانية بحروبها فى أوربا

كانت تركيا قد أخذ الضعف يدب فى أوصالها خلال القرن الثامن عشر — وذلك يرجع إلى سببين عظيمين ، الأول نهوض الأمة الروسية وتحالفها فى النمسا ضد الأتراك لبسط سلطانها وطرد الأتراك من أوربا — والثانى اختلال النظام وسوء الإدارة فى البلاد العثمانية وثوران من فيها من الشعوب المختلفة فى الدولة .

المسألة الشرقية :

ولما ظهرت علامات الانحلال على الدولة أخذت أوربا تنظر فيما سيئول إليه أمرها ، ومن يكون الوارث لأملاكها — وتعرف هذه المسألة عندهم « بالمسألة الشرقية » ويرجع تاريخها إلى عام ١٦٩٦ عندما استولى الروس على مدينة أزامة التى نزلت عنها الدولة العلية لروسيا رسمياً فى معاهدة (كرلوتز) كما نزلت أيضاً عن بعض ممتلكاتها إلى النمسا — وبذلك دخلت سياسة الشرق الأدنى فى طور جديد .

وبعد هذه المعاهدة وقف تيار تقدم الروس فى الجنوب فترة — وذلك لما نزلوا للترك عنه فى معاهدة برث (١٧١١) م بعد أن انهزمت الروسية هزيمة منكرة ولكن ما لبثت هذه الفترة أن انقضت وعادت الروسيا إلى مناواة الترك طول القرن الثامن عشر بلا انقطاع .

وكان ضعف الدولة المستمر فى خلال هذا القرن سبباً لمشاكل جديدة وارتباكات شديدة بين دول أوربا — فبينما كانت الروسيا تبذل جهدها لبسط سلطانها على البحر الأسود كانت النمسا من جهة أخرى تعمل طاقتها لمد أملاكها

على نهر الطونه ، إلا أن عمل كل من الروسيا والنمسا كان داعيا لقلق فرنسا وتدخلها — وفى سنة ١٧٧٤ م ابتدأت مقاصد الروسيا تظهر جليا بعد معاهدة كجوك ڤينارجه ففطنت انجلترا للأمر ، وأخذت تخاف انحلال عرى الدولة العثمانية ، كما أخذت أوربا من ذلك الحين تهتم أيضا بالمسألة الشرقية وتنتظر أن كان بقاء الدولة العلية وحفظ كيانها فى أوربا خيراً من ضمها إلى روسيا أم لا .

وكان منشأ الحرب أن روسيا كانت تحرض اليونان والجبليين والبوسنين على الخروج من الدولة — وفى سنة ١٧٦٨ اشتد حنق الباب العالى لدخول الجنود الروسية أملاك الدولة أثناء مطاردتهم لبعض البولنديين الفارين من وجوههم وأحرقوا بلطه التابعة لخان القرم أحد ولاة الدول العلية ، فأعلنت تركيا الحرب على الروسيا فى ٦ أكتوبر سنة ١٧٦٨ لذلك وبحجة الدفاع عن حرية البولنديين .

ابتدأت الحرب بين الدولتين ، فلازم سوء الطالع الدولة من أول نشوبها ولما أن انهزمت أمام روسيا على نهر دينستر واحتلت الروسيا ملدافيا وبلاد «الأفلاق» وبساربيا والقرم — وفى خلال هذه المدة كان الأسطول الروسى ظافر فى البحر — فانتصر على أسطول الدولة عند ثغر جشمه (شزمى) فى يولية سنة ١٧٧٠ وما زالت الجيوش الروسية تجد فى فتح بلاد الدولة بقيادة القائدين العظيمين « روما نوف » و « سوفاروف » وغيرهما حتى خشيت الدولة العلية العاقبة وطلبت الصلح فى سنة ١٧٧٤ م وعقدت مع الروسيا معاهدة « كجوق ڤينـــارجه » السابق الإشارة إليها .

وهى أهم معاهدة عقدت بين الدولة والروسيا — وأول طور جدى فى المسألة الشرقية — على أن الروسيا لم تنل بهذه المعاهدة أملاكا شاسعة ولكنها نالت بها حقوقاً سياسية كبيرة كان لها شأن عظيم فى المستقبل — لأن الدولة قبلت فى هذه المعاهدة أن تضمن لروسيا حكومة عاديه وحرية دينية للرعايا المسيحين —

وجعلت للروسيا الحق فى المطالبة بحقوقهم كلما رأت حاجة إلى ذلك — وهذا حق اتخذته الروسيا بعد ذلك ذريعة للتدخل فى شئون الدولة كلما رأت فى ذلك مصلحة لها

* * *

وكانت كترين لا تزال متشبثة بالمشروع الشرقى وتمنى نفسها بتنفيذه متى سنحت لها الفرصة .

وفى سنة ١٧٨٣ نقضت العهد وضمت القرم إليها بالرغم من تهاونها مع الدولة — وتم هـذا الضم بمقتضى معاهدة القسطنطنية (يناير سنة ١٧٨٤ م) وتعمدت الروسيا بعدذلك إهانة الدولة حتى أجبرتها على خوض غمار حرب جديدة عام١٧٨٧م انتهت بمعاهدة بياسى ١٧٩٢ — وأهم شروطها أن اعترف الباب العالى بكل معاهدة كينارجى وترك للروسيا أيضاً القرم وباقى الأراضى العثمانية إلى نهر « الدينستر » وبذا أصبحت الروسيا صاحبة السيادة المطلقة على شمال البحر الأسود هذا ما وصلت إلية الدولة فى أواخر القرن من جراء سياسة روسيا وقد خسرت أملاكا أخرى فى القرن التاسع عشر — ولـكن دول أوروبا العظمى لم تسمح لروسيا إلى الآن بتنفيذ ما يرمى إليه المشروع الشرقى الذى كان ولا يزال تحقيقه كل أمانيها .

ثانياً : رغبة الروسيا فى مناهضة تركيا

كانت من خطة قيصرة روسيا كاترين الثانية فى حربها مع الدولة العثمانية إثارة شعوب البحر الأبيض ضدها وتحقيقا لهذا الغرض خرج الأسطول الروسى إلى البحر المتوسط ، وكان الـكونت الـكسيس أرلوف يتولى القيادة العليا — فاستولى الأسطول على جزر الأرخبيل وتجول فى مياه البحر المتوسط (١٧٧٠ — ١٧٧١) وكان أرولوف ببحريته مستعداً لتلبية نداء أعداء السلطـان العثمانى

ومعاونتهم وقد وجد على بك هذه الفرصة سانحة فانتهزها وطلب المعاونة من الأسطول الروسى فى أثناء حملته على سوريا وقد أجيب هذا النداء بكل الطرق الممكنة .

المحالفة مع روسيا :

كان على بك بعد أن أعلن استقلاله وخرجب جيوشه لفتح سوريا — كما سيجىء تفصيله بعد أخذ يعمل لتأييد دعائم ملكه وتقوية مجهوداته العسكرية بالوسائل الدبلوماسية عن طريق الاتفاق والتفاهم مع أعداء تركيا .

فهو منذ سنة ١٧٧٠ قد أرسل روستى التاجر البندقى إلى جمهورية البندقية حتى يعرض محالفة على بك مع الجمهورية ويدعوها إلى الاستيلاء على الجزر والبلدان التى كانت للجمهورية سابقا فى حوض البحر المتوسط — وبعدها بالمساعدة بكل ما يملك من القوات فى مصر كما تعهد بتدعيم تجارتها القديمة فى بلاده .

وكذلك كتب إلى الأميرال الروسى الكونت أرلوف فى ليقورنه يعرض عليه عقد محالفة مع قيصرة روسيا على أساس أن يمده على بك بالأموال والمؤمن والجند فى النضال ضد تركيا ، فى نظير أن يرسل إليه الضباط الروس لتنظيم جيشه وتدريب جنده على النظم الأوربية ، وقد أسرع الكونت بالرد على مكاتبات — سلطان مصر — وشكره وشجعه على المضى فى خطته — وبذل له الوعود الضخمة وقدم له المساعدات الممكنة وهكذا كان استغراق تركيا كلية فى حرب روسيا ، ومساعدات روسيا لأعدائها حافزا — لا بل مساعداً لجيوش مصر على التوغل فى سوريا وما عداها شمالا .

ثالثاً : اتحاد المماليك بزعامة شيخ البلد

كان النضال المستمر بين البكوات المماليك وجماعاتهم فى سبيل التمتع بالحكم مع ما يجره هذا التنافس من ضعف رابطة المماليك ، ولما استتب لهم الأمر وضعف شأن الولاة الأتراك اتحدوا على أن تكون الزعامة فى المماليك لأحدهم ويسمى — شيخ البلد .

وأما تتبع هذا النزاع فهو قصة طويلة [1] تبدأ بظهور المنافسة بين بيتين من بيوت المماليك : القاسمية وكان منهم شيخ البلد — وذوى الفقارية وكانوا يطمحون فى المشيخة ، وكثيراً ما لجأ الفريقان إلى فض منازعتهم بالمبارزة خارج القاهرة فى المنبسط القريب من العرب — وهكذا تنازع هذان البيتان شياخة البلد حتى استقرت فى يد على بك الكبير ، الذى يقول عن حكمه « سافارى » (إن المصريين سعدوا ولا شك عندما أصبحت النزاهة عنوان الإدارة الحكومية ، وظفروا تحت حكومة على بك بذلك العصر الذهبى الذى انتظروه طويلا .

والواقع أن تنازع المماليك بعضهم مع بعض ، كان نتيجة لسياسة الأتراك . فرق تسد ، والدسائس التى كان يبثها ولاتهم وكان يصيب الأهلين من ورائها الإضرار والإرهاق خصوصاً أولئك الذين كانت تربطهم الظروف بساحة هؤلاء المتخاصمين . أما اتحاد المماليك فقد قوى نفوذهم ، لا بل قوى النفوذ المصرى حتى أن اسماعيل بك وهو من القاسمية لما استطاع أن يجمع كلمة المماليك فى هدنه على أساس معارضة تركيا — تمكن من البقاء فى منصب شياخة البلد مدة ١٦ عاما — (حزب الاستقلال الذاتى) .

---

(1) Deloporte P. P. 324 — 363 .
(2) Savary .T, II,Letter XVI P. 221.

ولما قتل اسماعيل بك (١٧٢٣) عاد النضال القديم بين القاسمية والفقارية حتى استطاع عثمان كاشف (الفقارية) ١٧٤٠ أن يصل إلى مشيخة البلد وقد بقى فى مشيخة البلد حتى اتحد زعيما المماليك ابراهيم بك كتخدا الاسكشارية واسماعيل رضوان كتخدا العرب فطردا عثمان بك إلى سوريا (١٧٤٢) واقتسما السلطة بينهما فاستولى ابراهيم بك على مشيخة البلد ورضوان بك بإمارة الحج وتبادلا بينهما هذين المنصبين — وقد استمر اتحادهما وسلطانهما زمناً طويلا (١٧٤٧ — ١٧٥٤) اختفت فيه الاضطرابات واستتب الأمن وهدأت الحياة — ولما بدأ المصريون من المماليك والعلماء والأهلين يفكرون فى مثل هذا المصير الهادى المستقر فزعت تركيا فأرسلت والياً جديداً (راغب محمد باشا) زودته بتعليمات مؤكدة بقتل زعماء المماليك وإعادة مصر إلى حظيرة النفوذ التركى مرة أخرى ، وقد عمل الوالى بهذه التعليمات وفر إبراهيم بك من مصر إلا أنه عاد واستولى على مشيخة البلد واستمر بها حتى قتل ١٧٥٤ (حزب الاستقلال التام) .

وكان على بك أحد مماليك ابراهيم بك .

رابعاً — رغبة المصريين فى الاستقلال

كان المماليك كما قدمنا حزبين : حزب الاستقلال الذاتى ، وحزب الاستقلال التام وكلا الحزبين بغيض إلى تركيا ، لرغبتها المستعيصه فى أن تحكم البلاد حكما مباشرا ، وكانت سياستها ترمى إلى اذلالهم جميعاً وضعف شركتهم ، ولا محاذرتها تمرد حاكم مصر وثورتها على الأستانة ، لإبادتهم ، كما فعل محمد على باشا بعد ذلك . ولكنها أبقت عليهم ليقفوا فى وجه الحاكم ويتحيفوا على نفوذه ، على أنه ثبت بينهم الشقاق المستمر وأسوأ ما كانت ترهبه تركيا — هو أن يسحق أحد الحزبين منافسه ، ويناصبها العداء كما فعل على بك الكبير ، كما كانت تخشى اتفاق الحزبين

عليها ، فقد كان المماليك يعتبرون تركيا غاصبة ويرون من واجبهم التخلص من نير الأتراك وتحرير البلاد من سيادة السلطان .

وكان المصريون يشايعون المماليك فى آرائهم ويرون فى نصرهم نصراً لقضية بلادهم ، وكان علماء الأزهر وهم زعماء مصر فى ذلك الحين ضالعين بنفوذهم وقوتهم مع المماليك وقد بذلوا لهم من مال المصريين كل التضحيات اللازمة والواجبة لكسب قضية الوطن وقد اشتركوا معهم فى تدبير وتنفيذ كل الخطط اللازمة لتحقيق الأمنية القومية .

كانت الحامية التركية قد تمصرت بمضى الزمن ، لأنها تركت فترة دون تغذيتها بجنود جدد بسبب حروبها المستمرة مع جاراتها ، فاندمج ضباط هذه الحامية وجنودها فى الكتلة الشعبية وانقطعت صلتهم بوطنهم الأصلى ، هذا إلى أن أفراد الشعب حلوا مكان من توفى أو تقاعد من جنودها وضباطها ، وقد صارت الحاميات المعسكرة فى مصر كلها جيشاً وطنياً مصرياً صميما . يتعاون مع المماليك ويسعى لنفس الغاية القومية ، توجهه تعليمات وآراء المشايخ والعلماء وقادة الرأى من المصريين .

* * *

وقد ظهرت حقيقة شعور المصريون ولهفتهم لاستعادة مجد بلادهم عندما أعلن على بك استقلال البلاد — وسمعوا أخبار انتصار جيوشهم على ملوك الأتراك واقتحامهم دمشق عنوة وطردهم الجيوش التركية إلى أسوار حلب .

فإنه لما وصلت الأخبار بهذا الانتصار الأول منذ هزيمة « طومان باى » [1] عند « مرج دابق » وضياع استقلال مصر ، أقام الأهلون الزينات والأفراح ثلاثة

---

(١) طوماف باى آخر سلطان مصرى وقد هزمه الأتراك فى موقعه مرج دابق واستولوا منه ذلك الحين على المملكة المصرية .

أيام بلياليها ، وزينت القاهرة وبولاق ومصر العتيقة ، وأقيمت الولائم وشاعت الحفلات فى كل مكان . دقت الطبول وصدحت الزمور وأطلقت المدافع « وكما يقول الجبرتى « عملوا شنكا وحراقات . وكان خروج القاهريين عند الحد المعقول فى إفشاء ما خامرهم من سرور، دليلاً جديداً على انبعاث الشعور القومى فى جنبات المصريين ، رغم عدم تحديد القوميات فى ذلك الحين وشيوعها فى القومية التركية والدينية .

وللمصريين العذر كل العذر فى إظهار الفرح بتلك الطريقة غير العادية فليس بالكثير أن يطربوا لاستقلال بلادهم واسترجاعها الممالك التى استظلت براتبهم على عهد السلطان الغورى وغيره ، وكان فرحهم بمثابة رد فعل لذكريات الفتح العثمانى ولا عجب إذا ذكر المصريون هزيمة الغورى وطومانباى بانتصار على بك على العثمانين وعودة الاستقلال المصرى والامبراطورية المصرية .

نشأة على بك الكبير

على بك الكبير هو أحد مماليك ابراهيم بك ، ولا يستطيع مؤرخ أن يتتبع خطوات حداثته إذ أنه فى حكم أى مملوك آخر جلب من موطنه صغيراً وبيع فى أسواق النخاسه بيع الأرقاء ونقل إلى أحد الأقطار التى قدر لهم أن يقبضوا على زمام أحكامه دون أن تربطهم به صلة مولد وآصرة قرابة .

إلا أننا يجب أن لا ننسى أن هؤلاء كانوا يجلبون صغاراً ويشبون فلا يرون إلا مصر لهم وطنا ينشأون على حبه ورعايته والوفاء له .

وكان المملوك يرقى السلم من أسفل درجاته ، فأول الأمر يعين فى جملة أولاد الخزنة الذين يوكل إلى شجاعتهم ومضاء سيوفهم حراسة الخزانة — وكان كل سنجق يجعل فى قصره ديواناً خاصاً ومصرفاً يخزن فيه أمواله وأسلحته — فإذا جد الجد وقضت الضرورة أن يغامر سيده فى إحدى المغامرات أو يشتبك فى معركة دبرها من لا يسعه خذلانه ، انحاز هذا المملوك إلى جانب سيده وحارب فى صفه — فإذا أحسن البلاء وانتصر سيده كوفئ بالسماح له بإرخاء لحيته والتمتع بمنصب خازندار ثم يرقى إلى منصب كاشف — وكاشف اليوم هو سنجق الغد وللسنجق أن يطمع فى زعامة زملائه والفوز بمنصب شيخ البلد .

جن على :

أول ظهور لمواهب على بك العسكرية وبسالته وشجاعته كانت فى الحجاز — فقد كان فتى يافعاً وكان مع زعيمه ابراهيم بك الذى كان فى ذلك الحين كتخدا الانكشارية وكان يتولى رياسة الجيش الذى يحمل المحمل ، فبرز له جماعة من

الأعراب المسلحين بقصد النهب ، وكان جيش المماليك غير مستعد للنضال ، فكادت الدائرة تدور على المماليك ، لولا بسالة الفتى على الذى برز لهم وصمد فى قتالهم حتى تغلب عليهم منفرداً وأبدى براعة منقطعة فى توجيه الهجوم وحسن الدفاع — ومن ذلك التاريخ سمى جن على ، وسمى بالجن لنهوضه بما يعجزعنه البشر .

على بلوط قبان كاشف :

حارب على بك بزعامة سيده ابراهيم منذ كان يافعاً وأخذ فى التقرب إليه ، واشترك فى كافة مؤامراته وفى أحد المعارك هاجم ابراهيم بك أعداءه قاصداً إهلاكهم ليصل على جثثهم إلى مشيخة البلد ، وقد كان ذراعه اليمنى فى تلك المعركة مملوكه على بك ، الذى تمكن بمفرده من قتل زعيمى الحزب المناهض وكثير من أنصارهم — ولما كانت الحجة الرسمية المنتحلة لهذا الهجوم هو الاقتصاص من المماليك الذين سرقوا أموال الحج ولم يوصلوها كالمعتاد إلى مستحقيها من أهالى الحجاز ، فقد رقى على بك بعد تلك المعركة إلى مرتبة كاشف وسمى على بلوط قبان أى على مبيد اللصوص .

على بك السنجق :

رقى بعد ذلك على بك إلى رتبة البكوية رقاه إليها سيده ابراهيم بك لما وصل إلى مشيخة البلد .

ومن ذلك الحين أخذ على بك يعقد الآمال على أن يتقوى شيئاً فشيئاً حتى يصير يوماً ما شيخاً للبلد ، وكان قد جمع ثروة طائلة وقضى ثمانية أعوام فى تقوية حزبه بضم المماليك إليه أو شرائهم وتدريبهم وإنشاء جيش مدرب منهم ، وفى نفس البكوات لم تقصر جهوده فى استجلاب مودة أقرانه من البكوات الآخرين بحسن السياسة والسبك والتدبير .

على بك الكبير شيخ البلد :

وسمى بهذا الإسم لكثرة انتصاراته ، ويقال أن هذا اللقب أعطاه له العامة لما أظهره من البذل فى فرح كريمة مولاه ابراهيم بك .

وقد تمكن على بك الكبير أن يكون شيخاً للبلد سنة ١٧٦٣ م — ولم يصل إلى هذه المرتبة إلا بعد منازعات وحروب مع أقرانه ومنافسيه ، أدت إلى فزع العامة وثورة المشايخ على خصومه حتى قال الشيخ الجفناوى أحد علماء الأزهر ، كما روى الجبرتى مخاطباً المماليك « لقد خربتم البلاد — وكل ساعة خصام وحروب مع على بك » .

ومع ذلك بقى النزاع بين على بك والسناجق حتى أجبروه على الفرار — ولكنه عاد باستدعاء أنصاره فى عام ١٧٦٦ م ، وحين استقرت قدمه فى مصر — وخلا له الجو ، أخذ فى مناهضة نفوذ تركيا — وأكثر من المماليك فى دعامته وعمل العمل الوحيد الصالح ، الذى لم تستطع الدولة العلية أن تعمله منذ استيلائها على مصر — بأن منع البكوات الذين كان يخشى من تغيرهم عليه ، من أن يقتنى أحدهم أكثر من مملوك واحد أو مملوكين .

سلطان مصر وخاقان البحرين :

تمكن على بك الكبير — كما سيجئ بيانه من إعلان استقلال مصر ، وحارب الدولة العليا فى اليمن والشام حتى امتد نفوذ مصر على جميع بلاد البحر الأحمر وبحر القرم ؟ وبسط رواق ملكه على سوريا ؟ وكل جزيرة العرب ، وأمر بأن يخطب باسمه فى المساجد وضرب النقود باسمه فى مصر ودعى له فى الحجاز ولقب « بسلطان مصر وخاقان البحرين » .

وقبل أن نختتم هذه المجالة لا بد أن نذكر رواية رواها سافارى[1] فى خطاباته الموجهة إلى شقيق ملك فرنسا ، قبل الثورة الفرنسية الكبرى فى سنة ١٧٧٩ .

وقد روى هذه الرواية سافارى عن مراد بك آخر المماليك ولكن الواقع أن هذه القصة قد وقعت لعلى بك فقد حدث فى سنة ١٧٦٦ كما وردت فى كتاب (ستافرو لا ستيان) وقد قصها سافارى على سبيل التفكهة لولى عهد فرنسا والمؤكد أنها وقعت لعلى بك لأنها فاتت الجبرتى فلم يذكرها عن مراد بك مع أنه عاشره ، وقد ذكرها ستافروا وكان معاصراً لعلى بك وقد رأى حوادثها بعينى رأسه — لهذا فهو أصدق تاريخياً بالنسبة لعلى بك ، وهذه القصة تستحق التدوين لا لغرابتها ، فلم يك مستبعداً فى ذلك العصر أن يخطف طفلا من بين أحضان والديه ، فيصير مملوكا ثم ينهض به الجد الباهر من فتى يتيم ، إلى ملك كبير ، بل لنعطي فكرة عن أحداث ذلك العصر — ولما كان على بك الكبير قد دخل بأعماله فى سجل الخالدين من رجالات وجب تقصى جميع أعماله ، وما يدخل منها فى سجل التاريخ والتدوين .

قال ستافرو ما نصه فى ص ٨٣ « سنة ١٧٦٦ بعث على بك بأحد مماليكه المسمى طنطاوى بك إلى الاستانة مع الخزنة — أى الجزية التى كانت تدفعها مصر لتركيا سنوياً — وأمره بأن يرسل حين وصوله إلى الاستانة رجلا موثوقاً به من رجاله إلى آماسيا (فى الأناضول) ليبحث عما إذا كان أباه وأمه لا يزالان على قيد الحياة حتى إذا وجدهما كذلك يدعوهما إلى السفر معه إلى العاصمة ليعودا لمصر مع طنطاوى بك عند أوبته — وقد قام المملوك بتنفيذ ما أراده مولاه وأوفد خازنداره إلى بلدة آماسيا فوجد المدعو داوود والد على بك لا يزال حياً فأفضى إليه الرسول بمهمة فسر الشيخ الهرم سروراً عظيما لعثوره على ولده المفقود

(1) Lottres sur L' Egypte Psr M. Savary. Paris 1785.
(2) The revolt of aey Bey - Lm dsn 1784.

وسرعان ما سوى مهامه وشئونه المنزلية وسافر مع الخازندار ومعه أصغر بناته ، وحفيد له تاركا أكبر بناته فى المنزل مع زوجها .

وكان داود قسيساً من طائفة الروم الأرثوذكس — وذكر أن ابنه ولد فى سنة ١٧٢٨ وسمى يوسف . وأنه خطف لما كان عمره ١٣ سنة .

ووصل الوالد إلى الاستانة فى الوقت الذى فرغ به طنطاوى من تنفيذ مهمته هناك ، وفعلا حضر ومعه ابنته إلى مصر بعد رحلة دامت أربعون يوماً .

ووصلت البشائر إلى على بك بمقدم والده فخرج من المدينة مع كثيرون من مماليكه لمقابلته — وحين رآه جثا على ركبته وقبل يديه .

ووصف الكاتب الفرح الذى استولى على الوالد وولده ، ثم قال : « وبعد ذلك أم الجميع سراى على بك الكائن فى الأزبكية [1] وتولى المماليك والأتباع غسل أقدام الوالد ، (كحسب عادة ذلك الزمان — ثم دخلوا به الحريم وهناك قدم له زوجته مريم اليونانية الأصل — وأقيمت الأفراح فى المدينة وتلقى على بك التهانى من البكوات والأهالى » .

وأقام القس داود سبعة أشهر فى القاهرة ثم عاد إلى آسيا ، رافضاً كل العروض التى عرضها عليه إبنه للبقاء فى مصر ، وممتنعاً عن تزويج إبنته « يوهود » إلى مملوك على بك « محمد بك أبو الذهب » الذى كان سبب نكبته وزوال عرشه — ولعل عذر هذا المملوك يرجع إلى هذا السبب ضمن الأسباب الأخرى التى سيجىء تفصيلها .

ويقول الجبرتى عن على بك الكبير :

« وكان عظيم الهيبة حتى قيل أن بعض الناس ماتوا فرقاً من هيبته ، صادق

---

(١) كانت دار على بك فى شارع عبد الحق المطل على بركة الأزبكية — وهى تقع فى الطرف الغربى من العمارة التى تحتلها الآن عمارة بنك مصر (كازينو بديعة — وسينما أوبرا ولا يزال اسم الشارع المجاور حتى الآن حارة عبد الحق السنباطى .

الفراسة متوقد الذكاء — يفهم موضوع الدعوى بين الخصمين ، بغير حاجة إلى ترجمان ، بل كان يقرؤها بنفسه وما كان يبصم ورقة تعرض عليه حتى يقرأها ويفهم مدلولها .

وكان يطالع كتب التاريخ وسير ملوك مصر ويقول لخاصته أن ملوك مصر كانوا مثلنا من المماليك كالسلطان بيبرس والسلطان قلاوون ... وأن هؤلاء العثمانيين قد أخذوا مصر بالتغلب فيجب أن تسترد منهم بنفس الوسيلة .

سياســـة الاستقرار[1]

تسلم على بك مشيخة البلد عام ١٧٦٣ — وأراد الانتقام من قتلة مولاه ابراهيم بك فتكاثر عليه المماليك واضطروه إلى الفرار إلى بيت المقدس ، ثم إلى عكا وهناك تحالف مع حاكمها الشيخ ظاهر العُمَر ومن هناك تمكن من العودة إلى مصر واسترجع مشيخة البلد،ومع ذلك فقد كان مركزه لا يزال مزعزعاً وأخذ يتذرع بالصبر والحيلة لبلوغ مأربه ، فاشترى العدد الوفير من المماليك ، وأغدق العطايا على الأصدقاء والأعوان وعلى غيرهم حتى من أعدائه فانضموا جميعاً إلى صفه حتى قوى شأنه — وعندئذ أسفر عن سياسته وهى الاعتماد على الإدارة الطيبة الهادئة لضمان استقرار الأمور فى البلاد — والتخلص جملة من أعدائه لضمان عدم خروجهم عليه — إلا أن أعداءه تكاثروا عليه مرة ثانية واضطروه إلى الفرار من مصر إلى اليمن والحجاز فقضى على بك هناك زمناً يستطلع أحوال البلاد والمدن الساحلية على البحر الأحمر حتى وصل إلى فلسطين متفقداً شئون البلاد التى كان ينوى أن يضمها لمصر،ولبث هناك حتى جاءته الدعوة للمرة الثانية من مصر للعودة إليها فرجع إلى القاهرة (١٧٦٦) ولم يستقر به المقام بها نهائياً إلا فى العام الثانى[2] .

وقد استتب له الحكم شيخاً للبلد ست سنوات بلا منازع متفرغاً للاصلاحات الداخلية فأنزل العقاب ببدو البحيرة وأخلاهم عن كل الوجه البحرى حتى الواحات وعهد فى عقابهم إلى أحد مماليكه الملقب بأحمد بك فقتل منهم خلق كبير حتى

(1) A histary of the reuobt of ali Bey etc ... London 1784 .
D elaport . bochroy . Ahmed be Boucher . chap .

(٢) الحملة الفرنسية وظهور محمد على — الدكتور محمد فؤاد شكرى .

سمى بعد ذلك بالجزار وهو أحمد باشا الجزار الذى تولى بعد ذلك باشاوية عكا والذى عاصر الحوادث التاريخية إلى أيام محمد على باشا الكبير .

٢ — أخذ على بك يحكم البلاد بحكم المستبد المستنير ، فهو كما يقول الجبرتى[1] « قد تتبع المفسدين والذين يتداخلون فى القضايا والدعاوى ويتحايلون على أبطال الحقوق بأخذ الرشاوى والجمالات وعاقبهم بالضرب الشديد والإهانة والقتل والنفى إلى البلاد البعيدة ، ولم يراع فى ذلك أحداً سواء كان متعمماً أو فقيهاً أو قاضياً أو كاتباً أو غير ذلك بمصر أو غيرها من البنادر والقرى وكذلك المفسدون وقطاع الطرق من العرب وأهل الحوف ، إلزم أرباب الإدراك والمقاوم بحفظ نواحيهم وما فى حوزهم وحدودهم وعاقب الكبار بجناية الصغار ، فأمنت السبل وانكفت أولاد الحرام ، وانكمشوا عن قبائحهم وإيذائهم بحيث أن الشخص كان يسافر بمفرده ليلا راكباً أو ماشياً ومعه حمل الدراهم والدنانير إلى أية جهة ويبيت فى الغيط أو البرية آمناً مطمئناً لا يرى مكروهاً أبداً » .

ولإثبات عدل على وقوة شكيمته على أهل الفساد روى القصة التالية ، إذ أن كاشفاً من كبار الكشاف حقد على أحد كبار المشايخ لإصداره فتوى ضد مصلحته فأهان الشيخ وسجنه فى داره — فلما علم بذلك شيخ الجامع الأزهر ركب إلى دار الكاشف وتوسط فناءها وأهان مماليك الكاشف وصاح عليهم طالباً إحضار الشيخ المسجون فصدعوا بالأمر وخرج الشيخان متأبطان أذرع بعضهما — وفى الغد ركب الكاشف إلى على بك طالباً الإذن بغسل الإهانة — فما كان من على بك إلا أن نهره وهدده بالقتل إن اعتدى على أحد الشيخين أو تعرض لهما .

وقد شهد بعدالة على بك حتى الأجانب أنفسهم فقال الرحالة الفرنسى « سافارى » إن المصريين سعدوا ولا شك عندما أصبحت النزاهة عنوان الإدارة

---

(١) الجبرتى جزء ١ صفحات ٣٨٤ — ٣٨٥ .

الحكومية وظفروا تحت حكومة على بك بذلك العصر الذهبي الذى انتظروه طويلا » .

٣ — ولتأييد قوته الحربية جمع الأعوان حوله فرفع فى أثناء هذه المدة إلى رتبة البكوية ستة عشر من مماليكه — كما رفع أحدهم إلى مركز أغا الانكشارية وقد زاد عدد مماليكه الخواص عن ٦٠٠٠ آلاف ، ضم إليهم ١٠ آلاف متطوع من الأهالى والمغاربة .

وكان بهذا أول من جند المصريين فى خدمة الجيش من زمن طويل سابق لهذا العهد — إذ كانت الخدمة العسكرية موكولة للماليك وحدهم — فوجد على بك أن رغبته بالاستقلال بمصر لا تتيسر الآن بإشراك المصريين أنفسهم فى الدفاع عن بلادهم .

وتجمعت لديه قوة عسكرية كبرى — دربها أحسن تدريب ، وقد سبق أن ذكرنا أنه طلب من الروسيا لما عقد معها محالفة ، أن ترسل له بعثة عسكرية لتنظيم القوات الحربية على النظم السائدة فى أوروبا — كما عنى بتعليم وتدريب مماليك بيته ، وأغدق النعم على الماهرين منهم والمخلصين له حتى اشتد بأس جماعته وقد شاهد فولنى[1] فى رحلته إلى الشام ؛ جيوش على بك وهى ذاهبة لفتح سوريا فقال — إن الجيش المشار إليه كان مكوناً من ٤٠٫٠٠٠ منهم خمسة آلاف من الخيالة ، وقد وصف ملابس المماليك فقال أنها ملابس مؤلفة من أربعة أو خمسة أردية وطيلسانات تتدلى إلى أرجلهم ؛ وكان قميص الفارس منهم من القطن الناعم الأبيض ، والثوب المتدلى فوق القميص من القماش الهندى الخفيف ؛ وفوق ذلك قفطان من حرير مزركش تمتد أكمامه حتى أطراف الأصابع ثم الكرك بأكمام قصيرة ويطوف حول الرقبة حزاء من السمور ، ولكل واحد منهم طيلسان يلبسه

(1) Volney Vayages en Egypte pandontles anneis 1783 - 1784 Paris 1784 .

فى الحفلات يلف به جسمه جميعه !!! أإذا علمنا فى أى عصر من العصور تمت كل الأمور لوثقنا تماماً بمقدرة على بك المالية وبحبه لجيشه واعتماده عليه وعلمه أنه هو أساس كل إصلاح وإنه الطريق الموصل إلى الاستقلال .

ولاتمام هذا الإصلاح أقدم على بك أيضاً على مالم يتمكن أحد قبله من الأتيان به وهو منع المماليك من اقتناء مماليك جدد بل حرم عليهم البك أن يكون له أكثر من مملوك واحد وبقية ما فى حوزته من المماليك الصغار ضمهم إلى جيشه وأما الكبار فقد اعتقهم وبذا نفذ السياسة التقليدية فى الإصلاح وهى الإخلاص من المماليك جملة ولكن بالتدريج بينما عمد محمد على باشا الكبير بعد ذلك إتماماً لهذه السياسة إلى القضاء عليهم دفعة واحدة .

ولإتمام هذه الخطة ؛ انتهز على بك فرصة أن سلطان تركيا بعث يطلب من مصر تجريدة عسكرية تشترك مع الجيش التركى فى حصار قلعة « شدكزيم » المحصور فيها القائد الروسى جالستين .

وكانت رغبة السلطان ؛ أن يضرب عصفورين بحجر واحد هو أن يستفيد من جيش على بك المدرب القوى بالحصول على إمداد قوى عظيم ، وفى نفس الوقت يوهن قوى على المتزايدة ليصرف نظره عن مشاغبة تركيا وهى مشغولة عنه فى حروبها وقد وافقت رغبة السلطان هوى فى نفس على بك .

وفى الحال شرع فى حشد خصومه ومناوئيه من السناجق الكشاف المتقاعدين وكبار المماليك المحررين من خدمة أسيادهم والذين لم ينضموا إلى مماليكه ، ثم ضباط الحامية التركية وكل من كان باقياً فيها من أصل تركى — وقد جمع فلول هذا الجيش وأرسلت إلى تركيا بقيادة سليمان بك الشابورى — وبذا نفى على بك أعداءه وخصوم إصلاح البلاد بالجملة ، وساقهم جميعاً إلى حتفهم من حيث لا يعلمون ولا يستطيعون له عصياناً ...

وهكذا أفسد على بك سياسة السلطان وتقوى بإرسال التجريدة حين ساق خصومه إلى حرب الروس ، وظل هو أقوى مما كان .. وما أراد السلطان إلا كسر شوكته وتقليم أظافره وتوهين قواه .

٥ — ورغم ذلك لم يغفل على بك « مصلحة الشعب » كما يقول سافارى — فأخضع العربان المنتشرين فى الصحراء وعلى الحدود ، واهتم بإنعاش الزراعة ، واستقر الأمن فى القرى واطمأن الناس لعدالته الصارمة ، وعندما حاول أعداؤه الوقيعة به (١٧٦٨) كشف مكيدتهم ونكل بهم .

٦ — ولم ينس على بك الجانب الشعبى فى سياسته ، فقد كان محبوباً من الشعب وزعمائه وكان لا يقدم على أمر جلل إلا إذا استشار علماء الأزهر وشيوخه وقد كانت النداءات تفد إليه من القاهرة بطلب عودته وهو منفى من مصر من خاصة العلماء والزعماء فى الشعب نفسه .

سياســـة الاستقلال

بعد أن انتهى على بك الكبير من توطيد سياسة الاستقرار ، وثبت دعائم ملكه فى مصر اتجه بأنظاره نحو سياسة الاستقلال عن تركيا — وقد كتب الرحالة الفرنسى فى كتابه السابق الإشارة إليه « أنه بمجرد أن اجتمعت أسباب السلطة بأكملها فى يدى على بك عزم على استخدامها لزيادة نفوذه وسلطانه ، فإن أطماعه ما كانت تقنع بلقب الحاكم أو القائمقام ، لأن سيادة الأستانة كانت تجرح كبرياءه ، فهو لا يريد إلا استقلال مصر ولقب سلطانها ، وعلى ذلك فقد اتجهت كافة أعماله نحو تحقيق هذا الهدف ... » .

ولم يتردد على بك فى إعلان استقلاله فامتنع عن دفع الجزية للباب العالى وطرد الوالى من مصر وصك العملة باسمه (١٧٦٨) .

ولإتمام الإحاطة بالموضوع نورد بياناً عن العملة فى عصر على بك كما وردت فى كتاب ستافرو السابق الإشارة إليه « قال : كانت النقود الذهبية ثلاثة أنواع وهى :

١ — المحبوب . ٢ — الزنجيرلى . ٣ — الفندقلى .

وكانت العملة الفضية كما يأتى :

البارة وتسمى أيضاً مصريه — الخمسية ويسميها الأتراك بشلك . وجمعها خماس و ٢٠ باره ونصف قرش والأربعين باره وتسمى القرش — ومما هو جدير بالذكر أن القرش فى ذلك الزمن يساوى فى وقتنا الحاضر ١٢ قرشاً مصريا .

* * *

وكانت تركيا فى حالة يرثى لها ، فجيوشها تتراجع أمام الأمير جالستين القائد

الروسى المنتصر ، والبرنس أورلوف فى البحر الأبيض على رأس جيش برى يقله أسطول بحرى قوى . وقامت الفتنة فى بلاد اليونان واحتلت الروس جزر الأرخبيل اليونانى والشريف أحمد فى الحجاز قد اغتصب الإمارة وطرد الشريف عبد الله رغم إرادة السلطان وعلى بك قد أعلن الاستقلال فى مصر وجيوشه على أهبة الاستيلاء على سوريا وفلسطين وهو يحتال فى خروجه للحرب بحجة تأديب باشا دمشق « عثمان بن العظم » عقاباً له على إيواء السناجق الهاربين من وجهه وإغرائهم به .

فانتهز على بك فرصة مواتيه وتحالف مع الشيخ ظاهر العمر شيخ عكا الذى كان يناصب السلطان العداء أيضاً ، وكان قد طلب سنة ١٧٦٨ من الباب العالى أن يعطيه حكومة عكا مدة حياته ، وأن يجعل الحكم وراثياً من بعده فى أولاده وأحفاده ، كما طلب أيضاً أن يقيمه الباب العالى شيخاً على كافة البلاد (فلسطين) إلى جانب شياخته على عكا .

وقد وجد على بك الفرصة سانحة فتحالف مع الشيخ ظاهر العمر وأمده بالقوات التى حاربت تحت امرته فى عكا ووطدت أقدام حليفه فى سائر الأماكن المجاورة له .

على بك وفتح بلاد العرب :

كان فتح سوريا الشغل الشاغل لعلى بك ، ولكنه وجد أن فتح بلاد العرب أسهل منالا وأقرب تحقيقا ، فقد جاس خلال البلاد أثناء تجواله وعلم أنها لقمة سائغة إن هو اتجه نحوها ، وكان يطمح إلى توسيع موارده المالية بالاستيلاء على سواحل البحر الأحمر لما كان يعرفه من أهميتها التجارية ولأنها طريق التجارة الدولية بين الغرب والشرق [1] . كما أنه كان متأثراً لدرجة كبرى فى مشروع فتح

(١) سيأتى بيان ذلك بتوسع فى باب تال .

بلاد العرب بأراء التاجر البندقى كارلوروستى Carlo Rossetti وكانت له صلات وثيقة به[١]. فأراد على بك أن يجعل جدة مقر تجارة الهند فيحول بهذا العمل التجارة الشرقية من طريق رأس الرجاء الصالح إلى الطريق البرى القديم عبر مصر[٢] فيدعم بهذه المصادر المالية الجديدة مركزه فلا يلجأ إلى ما كان يلجأ إليه أسلافه من نهب المصريين واستنفاذ أمواله .

ومن المحتمل ، بل من المؤكد أن على بك كان يقصد من هذه الحملة الاستيلاء على الحرمين الشريفين ليستغنى بنفوذها عن نفوذ الخلافة المدعى .

ويقول الجبرتى أن عزمه كان مجرد الرغبة « فى الاستيلاء على الممالك »[٣] استعدت التجريدة التى جهزت لفتح بلاد العرب وقسمت إلى قسمين القسم الأكبر بقيادة « محمد بك أبو الذهب » ومهمته فتح الجزيرة من الداخل ، والجزء الثانى مكون من أسطول كبير وجيش مهمته الاستيلاء على السواحل والموانى وقد نجحت التجريدة بقسميها فانتصر المصريون فى ينبع ودخل أبو الذهب مكة ونزل حسن بك إلى ميناء جده (ولذلك سمى بالجداوى) وتولى إمارتها من قبل على بك وطاعن الباشا المرسل من الاستانة .

ورجع القائدان المنتصران إلى مصر فى أكتوبر سنة ١٧٧٠ بعد أن تم فتح الحجاز واليمن — ودعى لعلى بك على منابر الكعبة ، دون الخليفة التركى ولقب « سلطان مصر وخاقان البحرين والبرين »[٤] .

الحملة على الشام :

إن من يريد الاستقلال فى مصر ، لابد أن يضع يده على الشام لأن حدودها

---

(1) Bruce Vol 1 P. 105.
(2) Volney Vol 1 P. 98.

(٣) الجبرتى جـ ١ ص ٢٥٣ .

(4) Savary - P. 231

الغربية مأمونة فى الصحراء أما حدودها الشرقية فمفتوحة ولا بد أن تكون حدود مصر الشرقية جبال طوروس . تلك هى السياسة القديمة لكل حكومة فى مصر ، منذ مينا إلى عهد محمد على .

وكان على بك قد بدأ المعركة بالامدادات التى أرسلها إلى حليفه الشيخ ظاهر العمر . ولما كان يريد أن يبنى على أساس ثابت لا يتزعزع فقد بدأ فى عقد محالفة مع روسيا عدوة تركيا الكبرى ، وسعى فى محالفتها ، خصوصاً وأن أسطولها كان يتجول فى البحر الأبيض فى مواجهته بالذات ، وكانت جيوشها قد احتلت جزر الأرخبيل اليونانى . لذا طلب مساعدة روسيا فى حملته على الشام وأعد جيشاً عظيما مكوناً من ٤٠٫٠٠٠ مقاتل ، وجهز أسطولا لنقل الميره من دمياط إلى عكا — وهذا هو الجيش الذى قابله فولنى ووصفه ملابس جنوده كما قدمنا .

خرج الجيش من مصر بقيادة أبى الذهب للزحف على الشام بطريق الصحراء فى ديسمبر سنة ١٧٧٠ — وبدأ على بك حملته بإرسال منشور إلى أهالى الشام يبشرهم بالحرية التى تحملها إليهم جحافلته قائلا « أنه لما كان المولى سبحانه وتعالى قد بارك جيشه وأغدق عليه نعمائه — بانتصار جنده ولاشك فى الحجاز والاستيلاء على الحرمين الشريفين ، فهو مضطر إلى استخدام هذه القوات لتخفيف آلام أهل الشام والقضاء على طغيان الأتراك .

واستولى الجيش المصرى دون متاعب على بلاد الشام واحدة بعد الأخرى فدخل غزة فى مارس سنة ١٧٧١ والرملة بعد حصار دام شهراً وفتحت نابلس أبوابها دون حرب ، وسلمت إليه بيت المقدس ، واستولى على يافا ثم التقى بحليفه الظاهر عمر واتجهت جيوشهما المتحالفة إلى دمشق فى أبريل سنة ١٧٧١ فاتحين صيدا .

* * *

كانت الجيوش التركية المنبثة من كل بلاد فلسطين قد تجمعت بقيادة عثمان باشا والى دمشق حول أسوار المدينة ، لإعداد آخر دفاع عن سوريا ، وقد وهمهم أبو الذهب بالجيش المصرى وضرب الحصار حول دمشق ، حتى اضطرها للتسليم فى نهاية نوفمبر سنة ١٧٧١ وانسحبت الحامية إلى القلعة ، وهذه أيضاً لم لم يلبث أن استولى عليها وانفتح الطريق أمام الجيوش المصرية إلى حدود الأناضول نفسها ولم يبق بيد الأتراك إلا حلب وحدها .

علاقات دبلوماسية :

كان على بك يعلم أهمية العلاقات الدبلوماسية فى جهاده فى سبيل الاستقلال فاستدعى إليه روسى كان تاجراً من أهالى البندقية وبقى فى مصر من ذلك الحين إلى أيام الحملة الفرنسية واسمه كارلو روستى Carlo Rosetti واشتغل مأموراً لجهة وادى النطرون كما روى عنه Brovwn فى كتابه ، وكلفه بتنظيم التجارة الخارجية والمخابرات الدولية ، وأرسله فى سنة ١٧٧٠ إلى جمهورية البدقية لعقد محالفة معها ويدعوها إلى الاستيلاء على الجزر والبلدان التى كانت للجمهورية سابقاً فى حوض البحر الأبيض ، وبعدها بالمساعدة بكل ما يملك من القوات فى مصر بدعم تجارتها القديمة فى بلاده .

وعقد على بك محالفة مع روسيا على أن يمد على بك الأسطول الروسى بالمؤن والجند فى النضال ضد تركيا ، مقابل أن يرسل إليه الروس ضباطاً لاستخدامهم فى تنظيم جيشه وتدريب جنده على فنون الحرب الأوربية ، ومهندسين لاستخدامهم فى أعمال الحصار — وقد تمكن الأرمنى يعقوب من إتمام المفاوضات مع الروس وتوصل أن عقد معها محالفة هجومية دفاعية لها .

وبعث على بك أيضاً بخطاب إلى القيصرة كاترين مع سفير خاص

« ذو الفقار بك » وقد عاد هذا السفير مع الأرمنى يعقوب بعد الفراغ من مهمتها . وأرسل الكونت ارلوف خطابات الصداقة إلى على بك مع ضابطين روسيين وثلاثة مدافع حصار .

خيانة أبى الذهب :

تمت فتوحات المصريين بسقوط دمشق وفتح الطريق إلى جبال طوروس ، ودانت سوريا كلها لحكم سلطان مصر على بك — ولكن يد القدر كانت لعمله بالمرصاد وهكذا دواماً مصر موعودة بسوء الحظ ونكد الطالع فى ساعة النصر .

فإن الدولة العلية هالها عظم انتصارات المصريين فأرادت التغلب على على بك وقهره فاستعملت وسائلها الخاصة فى القضاء عليه بتأليب قائده ومملوكه أبى الذهب على مولاه — وفعلا أوغرت صدر القائد المنتصر على سيده بأن دست له بأنه إن قضى على على بك كان له ملك مصر والشام ونال رتبة الباشوية الرفيعة التى لم ينلها مملوك قبله ولا حتى سيده نفسه ويقال أيضاً أنه ارتشى بأموال طائلة أعطاها له الترك — فيقول الأستاذ محمد كرر عى ج ٢ ص ٣٠٤ « إن عثمان باشا التركى بعث إلى أبى الذهب » بصرة ثقيلة من الدنانير للرجوع عن محاربته فارتشى منه وأمر العسكر بترك المحاصرة « والواقع أن أبى الذهب كان ينقم على سيده النعمة التى ينعم بها وكان يحسده على الملك الذى ناله هو بحد حسامه — كما أن بعض تصرفات على بك كانت تثير حفيظة نفسه مثل تقديمه المعلم رزق ، الذى كان يشغل منصب المستشار المالى لعلى بك والذى كان فى نفس الوقت جليسه وأمينه وموضع سره والمقرب إليه ، والذى كان على بك لا يقوم على أمر جلل إلا بعد أن يستوزع المعلم طالع النجوم فيه فإن وافقت النجوم أقدم وإن لم توافق

أحجم ، كما أن أبا الذهب كان يجمد عدم اقترانه من أخت على بك التى رفض أبوها القس داود تركها فى مصر كما قدمنا .

إذا أضفنا هذا إلى ما وصفه الترك فى ذهن أبى الذهب مع عدم جواز محاربة الخليفة وانتهاك حرمة الحرمين أو دمشق الدينية المقدسة وما قيل عن الحاد على بك وكفره وتحالفه مع الكفار الأجانب .

والواقع أن خيانة أبى الذهب ترجع إلى كل هذه الأسباب مجتمعة ولكن أهمها فى نظرى هى مطامع المملوك الشخصية التى ضحى فى سبيلها مصلحة مصر ذاتها هى تقوم بلا شك على ضم الشام إليها حتى تقوى حدودها الشرقية على دفع غائلة تركيا ، وتتمكن من الاستقلال والانفصال عن جثمان الدولة العثمانية .

نهاية على بك :

فقد على بك بسبب خيانة أبى الذهب ثمار المجهودات التى بذلها ، ولكنه الأمل كان لا يزال يراوده باستعادة تلك الامبراطورية فاستمر يرسل الامدادات إلى خليفة الشيخ طاهر ليستمر فى المقاومة والمحافظة على ما فتحته الجيوش المصرية أما هو شخصياً فقد سار تواً إلى غزا مع مماليكه الخواص وانضم إلى حليفه وأوقع بالأتراك فى موقعة حاسمة بجوار صمير — يوليو سنة ١٧٧٢ — واستولى على كل فلسطين تقريباً . ولم تلبث أن وصلت أخبار انتصاراته إلى مصر حتى قابلها المصريون بالفرح والابتهاج فكتب له العلماء والأهالى ورؤساء فرق الجيش يطلبون عودته ، وما كادت تصله الدعوى حتى جمع مماليكه وقدم إلى مصر دون اهتمام بالعواقب ، فتقابل مع أبى الذهب عند الصالحية وانتصر جماعة على بك فى مبدأ الأمر ولكن الكثرة تغلب الشجاعة : فلم تلبث جيوش أبى الذهب التى بلغت جملتها ١٢٠٠٠ جندى أن تغلبت على فلول جيش على بك التى لم تزد على خمسة آلاف ، وعبثاً

حاولت حاشية على بك إقناعه بالهرب والنجاة بنفسه فرفض الانسحاب وظل يقاتل حتى أصيب بجرح فى رأسه وسقط عن جواده فأسر وحمل إلى مخيم أبى الذهب الذى .. خرج إليه وتلقاه وقبل يده وحمله من تحت إبطه حتى أجلسه بصيوانه ، وقد بكى أبى الذهب من تأثره — ولكن على بك الذى نقل إلى القاهرة لم يلبث أن مات بعد أيام (١٥ صفر ١١٨٧ — ٨ مايو ١٧٧٣) بقصره بالأزبكية بدرب عبد الحق — وبوفاته أسدل الستار على المحاولة الأولى للتخلص من سيادة العثمانيين والتى نجح فى إتمامها محمد على باشا الكبير .

ودفن على بك الكبير بجوار سيده وأستاذه إبراهيم بك ذو الفقار على مقربة من ضريح الإمام الشافعى .

وطوى الزمان صفحة جليلة من كتابه فيها ذكرى عطرة والذكرى تنفع المؤمنين .

نهاية أبى الذهب :

لم يستفد هذا المجرم الأثيم من نتائج عمله ، فإنه لم تكد تركيا تعترف به شيخاً للبلد حتى خرج لحرب الظاهر عمر واستخلاص البلاد التى تحت يده فمات فجأة فى ٨ يونيو سنة ١٧٧٥ فى الوقت الذى وافق الباب العالى فيه على إعطاؤه الباشوية لولاية مصر ذاتها فلم ينل الرتبة ولم تصله ومات مغضوباً عليه ومذكوراً بالسوء مدى الدهر وقد حمله مماليكه إلى القاهرة ودفنوه بمدرسته التى شيدها أمام الأزهر .

على بك وطريق الهند البحرى

أن مصر كانت ولا تزال بسبب موقعها الجغرافى فى أضيق بقعة بين البحرين الأبيض والأحمر طريق المواصلا بين الشرق والغرب ، وبهذا السبب كانت محط أنظار العالم أجمع .

وقد كان برزخ السويس قبل فتح القناة ، الطريق البحرى للاتصال بين أوروبا والشرق من أقدم الأجيال ، وقد استمرت له هذه الأهمية الدولية والتجارية حتى اكتشف طريق رأس الرجاء الصالح (١٠٩٨) فتحولت التجارة طريق القديم إلى هذا الممر الجديد تجنباً لمشاكل الإدارة والنظام المعقد فى مصر حتى قامت المنافسات البحرية والبرية ، ولما استولت أسبانيا على بلاد البرتغال (١٥٨٤) وسيطرت أساطيلها على البحار وسواحل الأوقيانوس عادت أنظار الإنجليز والفرنسيين والهولنديين ترتد مرة أخرى إلى الطريق القديم .

هكذا كان المد والجزر يحيط بمجريات الأمور حتى انكسرت شوكة الأسبان وضاع أسطولهم فقلت أهمية الطريق البحرى المصرى مرة أخرى ولم يستعد مكانته القديمة إلا بعد أكثر من قرن عندما ظهرت بوادر الاستقرار الإدارى فى مصر مرة أخرى ، وأمكن تمهيد الطريق دون عقبات من المماليك فى فتح الطريق البحرى للهند ، والأهم من هذا السبب المحلى الأسباب السياسية الخارجية وتنازع السيادة بين دول أوربا فى القرن السابع فقد كانت المنافسة حامية الوطيس بين هولندا وانجلترا وكانت كل منهما تحاول أن تكون لها السيادة على الطريق البحرى حول رأس الرجاء الصالح وكانت فرنسا أقل مقدرة منهما مقدرة بحرية ولا تستطيع أن تقف فى وجه أى القوتين لذا اتجهتا أنظار فرنسا تجنباً للمنافسة والتجارية والسياسية بينها وبين غرمائها على الاهتمام بإحياء الطريق البرى .

وقد وجد الجو مهيأ لها فى مصر ، وقوى اهتمامها بهذا الطريق حتى أصبح إحياء هذا الطريق من قواعد الدبلوماسية الفرنسية فى عهد لويس الرابع عشر وفى عهد خلفائه .

وفى ظنى أن هذا الاهتمام هو الذى فتح المسألة المصرية الدولية وإليه يرجع المنبع الأصلى للحملة الفرنسية التى اجتاحت مصر بعد ذلك . وفى سنة ١٦٧٦ اقترح الفيلسوف الألمانى ليبنتز — Leibntiz على الملك الفرنسى إرسال حملة على مصر لضمان السيطرة الفرنسية فى أوروبا من جهة ثم السيطرة على تجارة الشرق وحمايه الكنيسة من جهة أخرى (بيت المقدس) وقد استطاع سفراء فرنسا فى الآستانة جوليراج وجيراردان بين عامى ١٦٨٣ و ١٦٨٦ إنتهاز فرصة انتصار البولنديين والنمسويين على الأتراك فنالوا من الباب العالى عدة أوامر توجب على السلطات المصرية احترام الامتيازات التى سبق أن نالوها فى القرن الماضى وتخفيض الضرائب المحصلة على البضائع المنقولة من السويس إلى البحر الأبيض إلى ٣٪ من قيمتها فقط . ورغم ضعف نفوذ الآستانة فى مصر فقد استفادت فرنسا من هذه الإجراءات وبلغ عدد سفنها التى وصلت والأسكندرية فى عام ١٧٢٥ مائة وخمس عشر سفينة .

وقد أفزع الإنجليز هذا النشاط وعلموا القيمة التجارية لهذا الطريق القصير التى تفضل طريقهم البحرى الطويل جداً خصوصاً بعد أن ازدهرت تجارة الهند الشرقية التجارية (التى كانت قد أنشئت ١٦٠٠ م) فحاولوا أن يستفيدوا من هذه الظروف فبدأو لأول مرة بالتدخل فى الأمور المصرية بأن عينوا لهم من بين مواطنيهم المقيمين فى مصر قنصلا للأشراف على مصالحهم سنة ١٦٩٨ وقد لاقت مساعى هذا القنصل معارضات من القنصل الفرنسى والسفير الفرنسى فى الآستانة فلم يهتم بها وكانت انجلترا تنتظر انتهاز أية فرصة ضعف فى النفوذ الفرنسى

لتتوغل منها إلى الحلول محلها فى نقل متاجرها عبر الطريق البرى وقد سنحت هذه الفرصة فى فترة حروب الوراثة الأسبانية — ١٧٠١ — ١٧١٤ فبدأوا فى تقريز نشاطهم التجارى . وما كاد على بك يوطد أركان ملكه فى مصر ينشر السلام والنفوذ المصرى على شاطىء البحرين الأبيض والأحمر ويعلن استقلاله حتى تهيأت الفرصة لمحاولة الاتفاق بين مصر رأساً وانجلترا دون تداخل تركيا التى لفرنسا فيها ضلع كبير .

وقد ذكر الرحالة الإنجليز أروين Arwin [1] فى مذكرات رحلته فى مصر فى ذلك الحين « إن على بك إنما أراد فتح بلاد العرب حتى يضمن لمصر التى استقل بملكها تجارة البحر الأحمر الحرة وشواطىء الهند » .

وبعد أن تم فتح مصر لجدة ميناء الحجاز وعين عليها العمال والموظفين المصريين — ومن هناك اتصل عمال على بك الكبير بضابط البحرية الإنجليزية بلتزار Balthar شقيق كارلوروسينى [2] رئيس جمرك جدة المعين من قبل على بك الكبير .

وقد كتب أحد كبار التجار الإنجليز المشتغلين فى جدة إلى على بك فى عام ١٧٢٨ يقول له « إنك فتحت طريقاً مباشراً للتجارة بين الهند وميناء السويس وفى العام الثانى تبادلت الرسائل بين على بك نفسه وحاكم البنغال الإنجليزى وكان نتيجة لذلك أن تألفت فى كلكتا شركة صغيرة للتجارة مع مصر وأرسل وارن هيستنجر Waren Hastings حاكم البنغال الجديد يشكر على بك على مساعيه واهتمامه بالتجارة لما تعهد بإرسال ، وعمل لعقد معاهدة تجارية معه لمصلحه التجارة بين البلدين .

---

(1) Elyes Arwin A. Series of Adveutwres etc Vol I P. 159. Vol II. P. P. 1 — 137.

(٢) كارلوروسنى اسمه Corlo Rosetti أصله تاجر صغير فى فينسيا — وقد حصل روسنى على وظيفة قنصل جنرال لامبراطور ألمانيا فى مصر — وقد عين بعد ذلك مأموراً لجهة وادى النطرون وكان لديه احتكار النطرون والتجارة فيه .

إنه وإن كانت الحوادث قد أطاحت بحكومة على بك فإن خلفاءه استفادوا بجهوداته فعقدوا معاهدة تجارية مع انجلترا (١٧٧٥) .

وكان الرحالة الانجليزى جيمس بروس J. Bruee [1] صاحب الفضل فى التمهيد لعقد هذه المعاهدة . وفى فبراير ١٧٧٣ استصدر فرمانا إلى شركة الهند الشرقية التجارية يجيز لها حرية الملاحة فى البحر الأحمر ودخول ميناء السويس وكانت محرمة قبل ذلك على سفن الفرنج .

وسافر بروس إلى الحبشة فى رحلة استكشافية لمنابع النيل وذكر شيئاً عن مشاهداته والمخابرات التى تناولت الحصول على هذا الفرمان والامتيازات فى كتابه « سياحة إلى منابع النيل » « Travels to discover The sources of The Nile in The years from 1763 — to 1773 . »

ولما أحل نجم دولة على بك عادت تركيا إلى منع سفر البضائع الهندية عن طريق السويس لأن فى هذا مقاربة لطريق برى آخر يمر عن تركيا وداخل حدود بلادها هو طريق الأستانة إلى حلب ومنها إلى بغداد فالهند .

وهكذا فقدت مصر أهم مورد من موارد ميزانيتها وخسرت خسائر مالية لا تعوض .

وكأنما منع عنها القدر كل خير سياسى ومالى بزوال حكم على بك الكبير . حتى أدركتها النهضة الكبرى بالثورة الجديدة التى أشعلها محمد على الأكبر .

---

(1) Pruse James of Kinnaird Vol I appséndix XXVII No : 17 Translation The Ferman 1773 .

تقدير أعمال على بك الكبير

ولو نظرنا إلى الأعمال الخطيرة التى قام بها على بك الكبير فى سبيل إصلاح البلاد لدهشنا لأن فرداً واحداً وفق لكل هذه الأعمال التى لا تزال تجنى ثمارها والتى كانت الأسس التى اتبعت بعد ذلك فى بناء مجد البلاد — فهو الذى وضع أساساً لحكومة عادلة منظمة — وأنقذ البلاد من ذلك النظام الممقوت الذى وضعه السلطان سليم ، وهو تقسيم البلاد بين الوالى والمولى من قبل الباب العالى وبين رئيس المماليك — وأغاثها من جور الجنود ومظالمهم — فقد كان الجند العثمانى أو صغار المماليك يغيرون على البلاد إذا تأخر المفروض لهم ، فنهاهم على بك عن ذلك بل وعاقب كبار المماليك إذا طغى أحدهم واستبد بالأهلين .

وأول إصلاحاته ، بل وأهمها أنه حاول إبادة المماليك كلية واستئصال شأفتهم ولو أنه هو شخصياً مملوك ، فبدأ أولا بالتخلص من المماليك المناوئين له ، بل ومنعهم من زيارة حاشيتهم بأن حرم عليهم اقتناء مماليك جدد ولما سنحت له الفرصة تخلص من أكثريتهم جملة بأن حشدهم فى حملة لمساعدة تركيا ضد الروس قاصداً منع عودتهم لمصر .

ولما كثرت حروبه أدمج كثيراً من الأهلين فى صلب جيشه ، بل حاول أن ينشىء جيشاً مصرياً بحتاً يعهد إلى بعض الضباط الروس تدريبه على النظم الأوربية وإنشائه على الطراز الحديث ، بدلا من الطراز المملوكى القديم .

وهو الذى فاوض أوروبا ودولها فى ضمان استقلال مصر ، وكان أفقه أوسع من رجال عصره وزمانه ، فبينما كانت تركيا تمنع الملاحة فى البحر الأحمر بجوار الدول الأوروبية ، بحجج دنيئة واهية ، تدل على عقلية قاصرة كان على بك يرسل

الرسل يشجع الدول البحرية على إعادة تنظيم خطوط الملاحة بين الشرق والغرب عن طريق مصر وسوريا والبحر الأحمر ... فكان فى عقليته المستنيرة تلك يسبق عقلية العواهل فى زمنه والعصر الذى عاش فيه .

وعلى بك الكبير كان مؤيداً تمام التأييد من علماء الأزهر ومشايخه وكانوا هم أول المؤيدين لسياسته وقيام عصره — وقد قام حكمه على تشجيعهم الكبير له ، وفى كل مرة كان يضطر فيها إلى هجر العاصمة إلى إحدى الجهات كان يعود مؤيداً برضاء المشايخ وتأثيرهم على أحزاب المماليك ، وهو بهذا قد مهد للسلطان الكبير الذى قام للأزهر الشريف فى مجرى الحوادث السياسية من نهاية القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر .

* * *

وإذا قال بعض المغرضين أن غرض على بك الكبير لم يكن إلا أن ينشىء له ملكا فى مصر ، ينصره بجميع الوسائل الممكنة كجمع الأموال وحشد الجيوش لحروبه العدة التى تجن منها مصر ثمرة تذكر ، فلا يغرب عنه أنه ما لبث حتى أدرك أن لا قيام للملك إلا بإصلاح مصر ، فأخلص فى محبتها ، وعمل على أن ينهض بها إلى مستوى الرقى والفلاح قدر استطاعته وقد كان أول حاكم شرقى حاول إدخال النظم الحديثة فى بلاده .

* * *

كان على بك ذاهبية مرهوبة ، وبصر شديد بتصريف الشئون ، قالوا أن رجلا من أعدائه أدخل عليه فأخذته الرعدة واصطكت ركبتاه وتصبب عرقه وسقط كجدار جرفه السيل ، ويرجع سر نجاحه إلى قيام هيبة فى نفوس معاصريه

* * *

إن مصر خرجت فى عهده ، ولفترة قصيرة من الدائرة الضيقة التى فرضتها

المنازعات أو الفوضى الداخلية حولها فأشرأبت بعنقها إلى ما وراء حدودها وتطلعت إلى تنظيم علاقاتها السياسية مع دول أوروبا — فتحالفت مع روسيا أعظم دول العالم فى ذلك العهد وعقدت معها معاهدات حربية تناولت المساعدات العسكرية براً وبحراً ، كما كانت بينها وبين انجلترا معاهدة تجارية — وهذا الأمر كان جديداً على السياسة المصرية فى تلك الحقبة من الدهر والذى عاشت بمنأى عن العالم الخارجى طوال عصر الأتراك . وكانت كل هذه المساعى إذا أضفنا إليها نضاله المستمر الطويل ضد تركيا للاستقلال بمصر ، تحقيقاً لرغبات وطنه القومية وإرضاء لشعور البلاد القومى .

وقد أثنى الشيخ الجبرتى على هذه السياسة الجديدة وخصوصاً حكومة على بك وقال عنه :

وقد تتبع المفسدين الذين يتدخلون فى قضايا الناس ويحتالون على ضياع الحقوق على أربابها بالرشاوى — وعاقبهم بالضرب الأليم والقتل والنفى إلى البلاد البعيدة ولم يجامل فى ذلك أحداً سواء كان معمماً فقيهاً أو قاضياً أو كاتباً وقطع دابر المفسدين — قطاع الطرق من العرب وألزم رجال الدرك بحفظ نواحيهم وعاقب الكبار بجناية الصغار — فاصت السبل وكف الأشقياء أيديهم » .

وقتل شيخ عرب الجبابية وهو من امراء الوجه البحرى من العرب وقتل زميله الهوارى شيخ الهوارة بالصعيد — وضرب عاصمة فرشوط فاستتب الأمن من أسوان إلى الأسكندرية .

وقد أحسن الشيخ الجبرتى مورخ ذلك الحين فى تلخيص الأسس العادلة التى قامت عليها حكومة على بك — والذى يقرأ ما بين السطور فى هذا التلخيص البديع ليرى فيها كل ما يتضمنه أحدث الدساتير وما تقوم عليه أعدل الحكومات

هذا المعنى هو الذى دفع سافارى [1] الرحالة الفرنسى الذى زار مصر فى تلك الأيام إلى أن يقول فى إحدى خطاباته عن حكومة على بك « إن المصريين سعدوا ولا شك عندما أصبحت النزاهة عنوان الإدارة الحكومية — وظفروا تحت حكومة على بك بذلك العصر الذهبى الذى انتظروه طويلا .

ويكفى على بك فخراً أنه أول من أحيا الأمبراطورية المصرية الحديثة وأنه فتح فلسطين وسوريا وبلاد العرب وادمج تلك البلدان فى مصر الكبرى فحقق بذلك إحدى الأمانى المصرية القومية .

* * *

إنه واضع اللبنة الأولى فى بناء مصر الحديثة — أنه رجل خرج من أحشاء الدهر قداً سودته نفسه .

فنعم المثل يضرب للعصامية .

---

(1) Sauary T . II, Lettrs XVII . P. 221

كتب للمؤلف

١ — عصر المماليك ١٩٣٢

٢ — الثورة العرابية ١٩٣٥

٣ — الإمبراطورية المصرية : « كما كانت وكما يجب أن تكون » ... ١٩٤٢

٤ — ثورة على بك الكبير ١٩٤٤

٥ — مصر الحديثة ١٩٤٦

الفهرس

صفحة	الموضوع
٣	الإهداء .
٥	تصدير لمعالى عبد الرحمن الرافعى بك
٧	مقدمة المؤلف .
١٥	مكتبة الكتاب — مراجع البحث .
١٨	مصر الحديثة
٢٧	المماليك كلمة عامة عنهم .
٣٢	مصر تحت سيطرة الأتراك .
٣٨	زعامة الأزهر للحركة الفكرية والوطنية .
٤٢	الحالة السياسية والدولية عند قيام على بك الكبير .
٥١	نشأة على بك الكبير .
٥٧	سياسة الاستقرار .
٦٢	سياسة الاستقلال .
٧٠	على بك وطريق الهند البحرى .
٧٤	تقدير أعمال على بك الكبير .

COLUMBIA UNIVERSITY
0026811782

962
Y183

JAN 29 1965

962 -Y183